قراءة في:

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

اعتنى بها

عمر بن عبد الرحمن بن عثمان الشفيع

قراءة في :

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

قراءة في:
رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

رقم الطبعة	الأولى ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م
عدد الصفحات	٨٨ صفحة
المقاس	١٧ × ٢٤
رقم الإيداع	٢٠١٧/٢٦٥٦٨م
الترقيم الدولي	I.S.B.N 978-977-6546-00-4

قراءة في :

رسالة
في الطريق إلى ثقافتنا

اعتنى بها

عمر بن عبد الرحمن بن عثمان الشفيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وحده لا شريك له، وصلاة الله وسلامه على خير نبيٍّ أرسلَه، محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من اهتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد، فهذه قراءة وإن شئتَ سمِّها أيها القارئ الكريم خلاصةً مقرِّبة مّا كتبه العلامة محمود محمد شاكر المتوفى سنة ١٤١٨هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في جزئه الفذّ (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا)؛ وهو جزءٌ بيَّن فيه أسباب التحوُّل الخطير الذي طرأ على ثقافة المسلمين، وكان قد تلقّى صدمة التدهور الأولى -كما سمّاها- في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى، وهي التي يسميها أصحابها الحربَ العالمية الأولى، وعاصر هذا التحوُّلَ الاجتماعيّ والثقافي والسياسي المضطرب، ووصف ذلك مرحلةً مرحلة، وكيف كان ذلك حتى وصل الحال إلى ما نحن عليه اليوم وأوشك أن يضيع كلُّ شيء كان غيرَ قابل للضياع، كما قال، موضِّحًا الفرق الكبير بين ثقافة المسلمين الأصيلة التي ينبغي أن يُنشّأ عليها أبناء المسلمين وبين ما يدرّس اليوم في سائر أقطار الإسلام إلا ما رحم الله، وقدّم لذلك ببيانٍ مؤصَّلٍ لحقيقة الثقافة بما لا نظيرَ له فيما أعلم، وبيَّن أنّ رأس الثقافة هو الدين، ولا تكاد توجَدُ أمّةٌ من خلق الله ليس لها دينٌ بمعناه العامّ، كتابيًّا كان أو وثنيًّا أو بِدْعًا لا كتاب له ولا وثن، ولا سبيل إلى أن يكون شيءٌ من ذلك واضحًا في عقل الإنسان إلا عن

طريق اللغة لا غير، فالدين واللغة منذ نشأة الإنسان الأولى متداخلان تداخُلًا غيرَ قابل للفصل، والدِّين صاحبُ السلطان المطلق الخفيّ على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعًا، سلطان لا يُنكره إلا من لا يبالي بالتفكُّر في المنابع الأُوَل، وأسلوبُ كلّ أمة في التفكير والنظر منتزَعٌ من دينها الذي تدينُ به، ونبَّه إلى لزومِ الفصلِ بين ما يُسمّى «ثقافةً» وبين ما يُسمّى اليوم عِلْمًا «العلوم البحتة»؛ لأنّ لكلٍّ منهما طبيعةً مباينةً للآخَر، فالثقافةُ مقصورة على أمّة واحدة تَدِين بدينٍ واحد، والعلم مُشاعٌ بين خلق الله جميعًا يَشتركون فيه اشتراكًا واحدًا مهما اختلفتِ الملل والعقائد، ومن أغفل هذه الحقيقةَ ضلّ عن الطريق وأوغَل في طريق الأوهام. وخلص من هذا إلى أنه من الباطل كلَّ البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هي عليه ثقافةٌ يمكن أن تكون ثقافةً عالمية يشترك فيها البشر جميعًا، وإنما يراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم هدفٌ آخرُ يتعلَّق بفرض سيطرةِ أمةٍ غالبة على أمم مغلوبة لتبقى تبعًا لها!.

وقد ذكَر المؤلف أنه منذ كان في السابعة عشرة من عمُره إلى أن بلغ السابعة والعشرين كان منغمِسًا في حياة أدبيّة بدأ يُحسّ إحساسًا مبهمًا متصاعدًا أنها حياة فاسدة من كلّ وجه، ولم يجد لنفسه خلاصًا إلا أن يرفُض متخوِّفًا حذِرًا، شيئًا فشيئًا، أكثرَ المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التي كانت يومئذ تطغَى كالسيل الجارف يهدم السدود ويقوِّض كل قائم في النفس والفطرة، فطوَى نفسه على عزيمة ماضية: أن يبدأ، وحيدًا منفردًا، رحلةً طويلة جدًّا، فبدأ بإعادة قراءة ما وقع تحت يده من الشعر العربي، قراءة متأنية

طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأنه يقلِّبها بعقله، ويجسها جسًّا ببصره وببصيرته، وكأنه يريد أن يتحسسها بيده، ويشم ما يفوح منها بأنفه، ويسَّمَّع دبيب الحياة الخفيّ فيها بأذنه، قال: (لا تقل لنفسك: «هذا مجاز لفظي»! كلا، بل هو أشبه بحقيقة أيقنت بها، لأني سخّرت كل ما فطرني الله عليه، وأيضًا، كل معرفة تنال بالسمع أو البصر أو الإحساس أو القراءة، وكلَّ ما يدخل في طوقي من مراجعة واستقصاء بلا تهاون أو إغفال - سخّرت كل سليقة فطرت عليها، وكل سجية لانت لي بالإدراك - لكي أنفُذ إلى حقيقة «البيان» الذي كرّم الله به آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأبناءه من بعده).

وسَمّى صنيعَه هذا (منهج تذوُّق الكلام)، وقال: (اكتسبت يومئذ بعضَ الخبرة بلغة الشعر وبفن الشعراء وبراعاتهم. ثم انفتح لي في خلال ذلك بابٌ آخر من النظر.. قلت لنفسي: «الشعر» كلام صادر عن قلب إنسانٍ مبين عن نفسه؛ فكلُّ «كلام» صادرٍ عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليقٌ أن أُجريَ عليه ما أجريته على «الشعر» من هذا «التذوق» الشامل). فأخذ أُهبته لتطبيق هذا التذوق على كل كلام.

أقدمَ إقدام الشباب الجريء على قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب أسلافنا: من تفسيرٍ لكتاب الله، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث، وكتب الرجال والجرح والتعديل، إلى كتب الفقهاء في الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين (أي: علم الكلام)، وكتب الملل والنحل، إلى بحرٍ زاخر من كتب الأدب والنقد

وكتب البلاغة، وكتب النحو، وكتب اللغة، وكتب التاريخ، حتى تراث الفلسفة القديمة، والحساب القديم، والجغرافية القديمة، وكتب النجوم وصور الكواكب، والطبّ القديم ومفردات الأدوية، وحتى قرأ البيزرة، والبيطرة، والفِراسة... يقول: (بل كلُّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه قرأتُ ما تيسر لي منه، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبيَّن وأُزيح الثرى عن الخبيء والمدفون). وعمَد في رحلته هذه إلى الأقدم فالأقدم، وقال: (لأنَّ ذلك كلَّه إنما هو إبانةٌ عما تموجُ به النفوس، وتَنبِض به العقول؛ ففي نظم كلِّ كلام وفي ألفاظه -ولا بدّ- أثرٌ ظاهرٌ أو وسْمٌ خفيٌّ من نفْس قائله وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير وشرٍّ أو صدق وكذب، ومن عقْل قائله وما يكمُن فيه من مستور الفِكر من نظرٍ دقيقٍ ومعانٍ جلية أو خفيّة وبراعة صادقة ومهارة مموَّهة ومقاصدَ مَرْضية أو مُستكرَهة. فمنهجي في «تذوُّق الكلام» معنِيٌّ كلَّ العناية باستنباط هذه الدفائن، وباستدراجها من مكامنها، ومعالجةِ نظْم الكلام ولفظِه معالجةً تُتيح لي أن أَنفُض الظلام عن مَصُونها، وأُمِيط اللِّثام عن أخفَى أسرارِها وأغمضِ سرائرها. وهذا أمرٌ لا يُستطاع ولا تكون له ثمرةٌ إلا بالأناة والصبر، وإلا باستقصاء الجُهْد في التثبُّت من معاني ألفاظ اللغة، ومن مَجاري دلالاتها الظاهرة والخفيّة، بلا استكراهٍ ولا عجلة، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوّل، وبلا توَهُّمٍ مُستبِدٍّ تُخضِعُ له نظْم الكلام ولفْظَه).

ثم قال: (ولا أزعُم -معاذَ الله- أني ابتدعتُ هذا المنهج ابتداعًا بلا سابقةٍ ولا تمهيد، فهذا خطَلٌ وتبجُّح، بل كل ما أزعُمه أني بالجَهْد والتعَب وبمعاناة التفتيش في هذا الركام من الكلام جمعتُ شتاتَ هذا المنهج في قلبي، وأصَّلت لنفسي أصوله، مع طول التنقيب عنه في مطاوي العبارات التي سبق بها الأئمة الأعلام من أصحاب هذه اللغة، في مباحثهم ومساجلاتهم ومثاقفاتهم، وما يتضمنه كلامهم من النقد والاحتجاج للرأي).

وتبيَّنَ له يومئذ تبيُّنًا واضحًا أن هذا المنهج كان مكتملًا اكتمالًا مذهلًا يحيِّر العقل، تلوح بوادره الأولى منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ، ومن حُفظت عنهم الفتوى منهم، كعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر رضي الله عنهم، كانت كاللمحة الخاطفة والإشارة الدالة، ثم زادت وضوحًا عند علماء التابعين كالحسن البصري، وسعيد بن المسيِّب، وابن شهاب الزهري، والشعبي، وقتادة السدوسي، وإبراهيم النخعي. ثم اتسع الأمر واستعلن عند جملة الفقهاء والمحدثين من بعدهم، كمالك بن أنس، وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني، والشافعي، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل، ويحيى ابن معين، والبخاري، ومسلم، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وأبي جعفر الطبري، وأبي جعفر الطحاوي. ثم استقرّ تدوين الكتب فصار منهجًا مستقيمًا، وكالشمس المشرقة نورًا مستفيضًا عند الكاتبين جميعًا،

منذ سيبويه، والفراء، وابن سلّام الجمحي، والجاحظ، وأبي العباس المبرد، وابن قتيبة، وأبي الحسن الأشعري، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، والآمدي، وعبد القاهر الجرجاني، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن رشد الفقيه وحفيده ابن رشد الفقيه الفيلسوف، وابن سينا، والبيروني، وابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، وآلاف مؤلفة لا تحصى حتى تنتهي إلى السيوطي، والشوكاني، والزبيدي، وعبد القادر البغدادي في القرن الحادي عشر الهجري، سنّةٌ متبعة ودربٌ مطروق في ثقافة متكاملة متماسكة راسخة الجذور، ظلت تنمو وتتسع وتستولي على كل معرفة متاحة أو مستخرجة بسلطان لسانها العربي، لم تفقد قط سيطرتها على المنهج المستبين، مع اختلاف العقول والأفكار والمذاهب، حتى اكتملت اكتمالًا مذهلًا في كل علم وفنّ، قال: (وأقول لك غير متردِّد إن الذي كان عندهم من ذلك لم يكن قطُّ عند أمة سابقة من الأمم، حتى اليونان، وأكاد أقول لك غير متردِّد أيضًا إنهم بلغوا في ذلك مبلغًا لم تُدرك ذروتَه الثقافة الأوربية الحاضرة اليوم، وهي في قمّة مجدها وازدهارها وسطوتها على العلم والمعرفة).

وأطال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير ما يلزم كلَّ باحثٍ في آداب اللسان، أو في العلوم التي يكون اللسان وعاءها، من أن هذا المَيدان لا يطيق النزول في أرضه وبحقه إلا من أوتي حظًّا وافرًا من البصر النافذ، والإخلاص المتجرِّد لطلب الحق وإدراكه، فبطبيعة هذا الميدان تدخل نفس النازل في أرضه عاملًا حاسمًا، تدخل أوّلًا من طريق معرفة «اللغة» التي نشأ فيها صغيرًا، فيسدِّدُه

أو يتهدَّدُه الإحاطة بأسرار «اللغة»، وعجائبِ تصاريفها التي تجمَّعتْ وتشابكت على مَرّ القرون البعيدة، وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها مزالقُ تَزِلّ عليها الأقدام، ومخاطرُ يُخشى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوَّهةَ الخِلْقة مستنكَرةَ المَرْآة، بقدر بُعدها عن الأسرار الخفية المستكنّة في هذه الألفاظ والتراكيب، وهذا بابٌ واسع. وتدخل ثانيًا من طريق «الثقافة» التي ارتضَع لِبانها يافعًا؛ فإن الثقافة تكاد تكون سرًّا من الأسرار الملثَّمة في كل أمة من الأمم، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغَوْر معارفُ كثيرةٌ لا تُحصى، متنوّعةٌ أبلغَ التنوّع لا يكاد يُحاط بها، مطويةٌ في كل مجتمع إنساني، وبين تمامِ الإدراك الواضح لأسرار «الثقافة» وقصورِ هذا الإدراك منازلُ تلتبس فيها الأمور، ومسالكُ تَضلُّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس في حَمْأة الحيرة بقدر بُعدها عن لباب «الثقافة» وحقائقها البعيدة المتشعبة، فهذا أيضًا بابٌ واسع جدًّا. وتدخل ثالثًا من طريق أهوائه ومنازعه التي تسري في خفاءٍ وتدِبّ، هل يملك ضبطها وردَّ غوائلها التي تبدأ بالخاطر الأول الذي يستهوي الباحث، وتنتهي إلى المكر والعبث والكذب وخيانة الأمانة، أو لا يملك ذلك بعد أن استوى رجلًا مبينًا عن نفسه، وهذا الثالث هو موضعُ المخافة الذي يستوجب الحذر، ويقتضي حُسنَ التحرّي. فتلك ثلاث طرق تتهدّد كلَّ باحثٍ أو تسدِّده ولا بدّ منها، ومن هنا عُرف بطلانُ منهج «ديكارت» «أن يتجرَّد الباحثُ من كلِّ شيءٍ كان يَعلمُه من قبلُ، وأن يستقبل بحْثَه خاليَ الذهن خلوًّا تامًّا مما قيل»، بل هو بهذه الصورة خارجٌ عن طوق البشر، كما قال محمود رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إنّ ما صرح به المؤلف – على كراهته لذلك التصريح – من أن منهج التذوق عنده مطبَّقٌ تطبيقًا بيِّنًا في كلِّ ما كتبه قلمُه من مقالاته التي نشرها قديمًا وحديثًا سواءٌ كان ما كتبه بحثًا أو نقدًا أو تعبيرًا عن نفسه بكل منحًى من مناحِي القول والبيان أو تعليقًا على أصول الكتب القديمة التي نشرها وخرجَتْ للناس وكذا ما أطال فيه من تقريرِ ما ينبغي أن يكون عليه كلّ باحث وتحريرِ ما يلزم النازلَ هذا الميدانَ لَتنبيهٌ للقارئ أن يقف عندها وقفة متأمّل، وإرشادٌ له إلى أن ما حواه هذا الكتاب ما أُثبِت إلا بعد التحقُّق والتحرّي من تاريخ هذه القصة المتشابكة التفاصيل؛ لتضمُّنه جوابًا لسؤال ذي شِقَّين سأله هو في كتابه: كيف نشأ الخلاف بينه وبين المناهج السائدة؟ ولِمَ نشأ؟ كما أنّ في تصريحه ذلك دعوةً للقارئ إلى أن يتتبع ما تضمنه هذا الكتاب مستعملًا سنّةَ العقلاء في التبصُّر والمعرفة، وأن يحاكِم إلى سنتهم تلك مَن يخالفها من أي ملة كان.

هذا وإن عامّة ما في هذا التلخيص إنما هو بلفظ المؤلف في كتابه، إلا ما تطلّبتْه ضرورةُ الربط وتنسيق الكلام، وإلا ما كان من عناوين الفقرات على أن العناوين في حقيقتها منتزعٌ غالبُها من ألفاظ المؤلف، ووقع فيه مما كتبه المؤلف في غير هذا الكتاب نصّان أشرت إليهما في محلِّهما، وما قصدتُ من ذلك كلِّه إلا الدعوةَ إلى قراءة الكتاب الأصل وتأمُّلِه، عسى أن يكون ذلكم خطوة في مسار التصوُّر الصحيح لحقائق الأمور، ومُبلِغ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِح.

عمر بن عبد الرحمن بن عثمان الشفيع

إغفال التاريخ مخالفة لسنة العقلاء

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الفَسادَ لم يدخل على ثقافتنا نحن المسلمين دخولًا يوشِك أنْ يَطمِس مَعالمها ويطفئ أنوارها، إلاّ بعد التصادمِ الصامت المخيف الذى حدَث بيننا وبين الثقافة الأوربيّة الحاضرة، قال: وإذا نحن أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبينه تبيّنًا واضحًا، فكأننا أغفلنا القضية كلَّها، وأسقطناها إسقاطًا من عقولنا، وخالفنا سُنّة العقلاء المميزين في التبصُّرِ والتبيّنِ وترْكِ التساهلِ عند مَواطن الخطر. وكان قد قال في بعض ما كتب: (وأحبُّ -وما أكثرَ ما أحبُّ- أن يكون القارئ متنبِّهًا غاية التنبُّه؛ لأنّي لا أكتب هذا التاريخ المتشعِّب المتداخل للتسلِّي بالألفاظ أمضَغُها -كما يتسلّى الفارغون على المقاهي بالحديث وقزقزة اللّبّ-، بل أكتبُه باذلًا أقصى الجُهد ليفتح كلُّ امرِئٍ عينيه على أكبر الجرائم التي ارتُكبت والتي لا تزال ترتكَبُ بأخبَثِ الوسائل وأخفاها وأَفتكِها في غمرة الحديث عن النهضة والتطوُّر)[1].

أمران يتعلقان بنهضة أوربا إغفالهما يضر بالحقيقة

وسرد تاريخًا أوضح أنه اختصره اختصارًا مُوجَزًا أشدَّ الإيجاز لما كان عليه الأوربيون في قلب أوربا، كانوا في جاهليةٍ جهلاءَ، هَمَجًا هامجًا، لا دِينَ يجمعهم، حتى جاء «عصر النهضة»، وذكر أنّ هناك أمرين مهمين سبَقَا عصر النهضة، إغفالُ النظر إليهما من قِبَلِنا يضرّ بتصوُّرِنا للحقيقة التي ينبغي أن يعرفها صغيرنا وكبيرنا، ورجالنا ونساؤنا، على وجهها الصحيح، لا على

(١) من أباطيل وأسمار (ص ١٨٠).

الوجْه الذي عُلِّمْناهُ في المدارس صغارًا، بل لا نزال نُعلِّمُه أولادنا، وكان من أهم أسباب فساد حالنا في العلم والعمل.

الأمر الأول: ما يُسمّى بالحروب الصليبيَّة:

كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلبَ على رُقْعة ممتدّةٍ من حدود الصين إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب إفريقية، وأنشأ حضارة نبيلةً متماسكةً كاملةً، بعد أنْ رَدَّ النصرانيَّة وأخرجها من الأرض، وحصرَها في الرقعة الشمالية التي فيها هذا الهمج الهامج. وظلَّ الصراع مُشتعلًا مدّة خمسة قرون، بين النصرانية المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتاخِمُها جنوبًا. ولكن جيوش النصرانية لم تستطع أن تفعلَ شيئًا يُذْكرُ، مع تطاوُلِ الأمر. وتدبر الأمرَ قادةُ النصرانية، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع، وداخلتْهم الخشيةُ، وخافوا أن يفْضِي الأمرُ إلى زَوال سلطان النصرانية عن جنوبِ أوربة كما زال بالأمس عن الأندلس. فرأوا أنْ يتجهوا إلى الشمالِ؛ ليدخلوا في النصرانية الهمجَ الهامج الذي لا دين له يجمعه، ليكون بعد قليل مددًا لجيوشٍ جرّارةٍ تُطبقُ على ثغور الإسلام وعواصمِه في الشام ومصر.

انطلق الرهبان يجوبون شمالَ أوربة ليُدخلوا الهمجَ الهامج في النصرانية، ويُعِدُّوهم إعدادًا عظيمًا لخوض المعركة العظمى بين الإسلام والنصرانية، وكان جزءًا من هذا الإعدادِ تبشيعُ «الإسلام» في عيونهم، وأن أهل الإسلام وثنيون، وأن رسولَ الإسلام كان وكان... فلم يتركوا بابًا من الكذب والتمويه والبشاعة إلّا دخلوه ليُقِرُّوا معانِيَه في قَرَارة نفوس

أتباعهم من الهَمَج الهامج، ليكون حقًّا مَحْضًا نطق به راهب أو ناسك أو قِسيس، فهو مُنزَّه لا ينطق إلا بالحقّ.

وجاءت سنة (٤٨٩هـ)، وجُيّشت الجيوش من هذا الهمج الهامج من النرمَنْديِّين والصقالبة والسكسون، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاع، وبدأت «الحرب الصليبية»، واكتسحت في طريقها أهل النَّصرانية وسفحت دماءهم بفظاظة، وبدأت تكتسِح ثغور الإسلام وعواصمَه الشمالية وتسفح الدماء المسلمة، واستمرَّت قائمةً قرنين كاملين. كانت فرحةً رائعة، ولكنها انتهت بالإخفاق وباليأس من حربِ السلاح في سنة (٦٩٠هـ)، بعد أن تركتْ في أنفس المقاتلين الهَمَج بصِيصًا من اليَقَظة والتنبُّه، باحتكاكهم المستمرّ بحضارة راقية كانت تَفتنُهم، وتبعث في نفوسهم الشك فيما كانوا قد سمعوه من رُهْبانهم وملوكهم، وكانت حسرة وغصَّة في قلوب الرّهْبان والملوك والمثقفين، وحاولوا أن يَستبْقوا الصورةَ المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين راسخةً في أنفس الجماهير المتحمّسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة.

تجنُّبُ ملوك الإقطاع والرهبان الحربَ بالسلاح واتّجاههم إلى العلم

بَطَل عمل السلاح بالإخفاق واليأس، وخمدت الحروب تقريبًا بين الإسلام والصليبية نحو قرنٍ ونصفِ قرنٍ، وأدرك الرُّهبان وملوك الإقطاع أن معركة السلاح لن تُغنيَ عنهم شيئًا، فنحَّوا أمره جانبًا إلى أن يحين حينُه ويصبح قادرًا وحاسمًا، وتبيّن لبعضهم أن سرَّ قوَّة الحضارة الإسلامية هو

العلم، علم الدّنيا وعلم الآخرة. فعلم الآخرة، وهو دين الإسلام مُقْنِع لجماهير البشَر، وهذه أمواجُ المسلمين تتدفق في قلب أوربّة غربًا، ويدخُلُ الإسلامَ سِلْمًا بلا إكراهٍ جماهيرُ غفيرة، كانوا بالأمس نصارى متحمِّسين في قتالِ «المسلمين الوثنيِّين»! كما أوهمَهم الرهبان، فلم يُغْنِ هذا الإيهام عنهم شيئًا. وعلم الدّنيا، كما رأوا، هو الذي مكَّنَ لهذه الحضارة الإسلامية أن تملك هذه القوةَ الهائلة المتماسكة التي أيقنوا أنها مستعصية على الاختراق.

فبدأ الرهبانُ وتلاميذُهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب، وهي معركة المعرفة والعلم الذي هيّأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظفر والغلَبة، وكان هؤلاء في بدء أمرهم إما طالبَ علم يتعلم من العرب المسلمين ليقشع الجهل عن نفسه وقومه، كما فعل «روجر بيكن» الإنجليزي (٦١١-٦٩٣هـ)، وطبقتُه. وإما راهبًا ذا حمية ودفاع عن دينه حين أحس بالخلل الواقع في الحياة المسيحية؛ فكلُّ همّه أن يصلح خلل المسيحية، ويُمكِّنها من حجة مقنعة تحول بين الناس وبين الانبهار بالإسلام وحضارته، كما فعل «تُوما الإكويني» الإيطالي (٦٢٢-٦٧٣هـ)، ولكن كان العائق عن أن تؤتي هذه النهضة ثمارها يومئذ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة، وهي لغة لا تعرفها جماهير رعايا الكنيسة، وكانت أوربّة كلها تتكلم لغاتٍ كثيرةً مختلفة، ولهجات شديدة التبايُن ولكنها لغات قلقة، وكان أكثر هذه الجماهير أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، فأصبح الرهبان والعلماء يسيرون في طريق، ورعايا الرهبان يسيرون في

طريق آخر، فهم قطيع ينعِق فيه ناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون.

الأمر الثاني: فتح القسطنطينية:

وقعت الواقعة! اكتُسِحَت الأرض المسيحيّة في آسية، في شمال الشام، ودخلت برُمّتها في حَوْزة الإسلام سنة ٨٥٧هـ، سقطت القسطنطينيّة عاصمة المسيحية، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرقي. واهتزَّ العالم الأوربيُّ كلّه هزّةً عنيفةً ممزوجةً بالخِزْي والخوفِ والرُّعب، فقد كانوا يومئذ يعيشون في ظلِّ شبَحٍ مخيف متوغِّل في أرض أوربة ببأس شديد وقوة لا تُردَع، بل هو شبحٌ متجوِّل يطوف أنحاء القارة كلها، لا يَطرِف فيها جفن حتى يراه ماثلًا في عينه آناء الليل وأطراف النهار «الترك الترك»!!.. ولكن قارَن ذلك إصرار مستميت على دَفْع هذا الخزي، وإماطة هذا الخوف والرعب وإشعال نيران الغضب والحقد، بحمية تأنف من الاستكانة لذل القهر الذي أحدثه محمد الفاتح ورجاله من المسلمين الظافرين.

طلبُ الأوربيين الخروج من عار الهزيمة في الحروب وفتح القسطنطينية

ودار الصراع في جنبات أوربة بين جميع القوى التي كانت تحكم جماهير الهمج الهامج، ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة إصلاح خلل المسيحية الشمالية مرة أخرى، فخرج الراهب الألماني «مرتن لوثر» (٨٩٤ - ٩٥٣هـ)، والراهب الفرنسي «جون كلفن» (٩١٤ - ٩٧١هـ)، وخرج السياسي

الإيطالي الفاجر «نيكولو مكيافلي» (٨٧٠-٩٣٤هـ)، وخرج أيضًا صراع اللغات واللهجات المتباينة، طلبًا لاستقرار لغة موحدة لكل إقليم، وإخراج سيطرة «اللاتينية» العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب، لكي يمكن نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير الهمج الهامج من رعايا الكنيسة، وتاريخ طويل حافل متنوع، وجهاد مرير قاسٍ، في سبيل اليقظة العامة والتنبّه والتجمع؛ لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رعب «الترك» عن أرض أوربة «المقدسة»، وهؤلاء «الترك» -وهم المسلمون- طلائعُ عالم إسلامي زاخر هائل مخيف غير معروف لهم ما في جوفه، مسيطر على رقعة متراحبة ممتدة من الأندلس إلى أطراف تحيط بأرض روسيا، إلى جوف قارة آسية، إلى جوف قارة إفريقية.

وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذي لا يغفُل عنه راهب ولا عالم ولا صغير ولا كبير ولا عاميّ ولا متعلم ولا رجل ولا امرأة. ومع اليقظة تفجّر أعظم سيل يكتسح أميّة الهمج الهامج ويخرجه من أغلال الجهالة، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقرًّا في جوف العظام، مع البغضاء والحقد، ومع التصميم والإرادة، ومع اليقظة والتنبّه، وطالت الليالي والأيام، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان.

ليس لأوربا المسيحية من مدد إلا ما كان في دار الإسلام من العلم

وبالغضب المشتعل بلهيب البغضاء والحقد في قلوب قادة المسيحية في أوربا قامت يقظة شاملة في أوربا بنيت على الإصرار، ولم يكن لأوربا يومئذ من سبيلٍ ولا مدد إلا المدد الكائن في دار الإسلام، من العلم الحيّ عند علماء المسلمين، أو العلم المسطَّر في كتب أهل الإسلام.

اقتناء الأوربيين للكتب في دار الإسلام بالشراء أو السرقة

وجذور القضية التي غفل عنها الناس يومئذ ولا نزال إلى اليوم غافلين عنها كلَّ الغفلة أن همّ الأوربيين الأكبر يومئذ كان هو السطوَ على كتب علوم الحضارة أوّلا، ثم على كتب التاريخ، ثم على كتب الآداب كلها بلا تمييز، وأنهم بذلوا ما بذلوا في نقل الكنوز المخبوءة من العلوم في دار الإسلام سرًّا إلى أوربا، ليَبنُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا، وأغلقوا الأبواب على ذكر ما سَطَوا عليه بالضبة والمفتاح، حتى لا يعلم خبيئته أحد، حتى ولو كان أوربيًّا قُحًّا.

ودليلُ السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم يَصِيح شاهدًا على نفسه بالسطو على ذخائرنا التي يَـمُنُّون علينا بعد ذلك أنهم حفظوها لنا ونشروا لنا نفائسها!، دليلُ السرقة قائم في جميع مكتبات أوربة صغيرها وكبيرها، في فرنسا، وإنجلترا، وهولندا، وروسيا، وأمريكا، وغيرها من البلدان، وفي الأديرة، والكنائس، وفي جميع أرجاء عالم الغرب المتحضِّر المزعوم؛ لأنها حضارةٌ قامت على المنفعة والسلب ونَهْبِ الأمم وإخضاعها بكلِّ

وسيلةٍ لسلطانها المتحضِّر، والدلائل على ذلك لا تخفى على بصيرٍ ذي عينين تبصران.

أمران عظيمان كان يقوم بهما من يسيح منهم في ديار المسلمين

وكان من صنيعهم يومئذٍ بعثة أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادةً ما، تخرج لتسيح في أرض الإسلام، وتجمع الكتب شراء أو سرقة، وتلاقي الخاصة من العلماء، وتخالط العامة من المثقفين والدهماء، وتدوِّنُ في العقول وفي القراطيس ما عسى أن ينفعهم في فهم هذا العالم الذي استعصى على المسيحية واستعلى قرونًا طوالًا. يخرجون أفواجًا تتكاثر على الأيام، ويجوبون أرجاء هذا العالم، يملكون قدرة خارقة أن يُخالطوا أهل الإسلام في ديارهم وعلى وجوههم سيمياء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطوية والبِشْر، ولا همّ لهم ليلًا ولا نهارًا إلا حيازةُ كنوز علم دار الإسلام بكلِّ سبيل، ويعودون لإتمام عملين عظيمين:

- إمداد علماء اليقظة الأوربية المسيحية بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطَوا عليها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها.
- إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام، وما رأوه عِيانًا فيها، وما لاحظوه استبصارًا. وكان أهم ما لاحظوه أو خبروه غفلة مطبقة على المسلمين أورثهم إياها الاستنامة إلى النصر القديم على المسيحية في ما يُسمى بالحروب الصليبية، والاغترار

بالنصر الحديث بفتح القسطنطينية، ثم سماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع من دينه يخالف دينهم، ولا سيما اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة، ولأنهم أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذي يسّر لهم أن يجوبوا في الأرض غير مروَّعين، ويسّر لهم خاصة أن يداهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويوهموهم بالمكر والمحال أنهم طلاب علم لا غير، خالصة قلوبهم لحب العلم والمعرفة.

صبرهم على فرز ما حازوه من ديار الإسلام من كتب العلم

وما هو إلا قليل حتى كان تحت أيديهم آلافٌ مؤلفة من مخطوطات من كتب دار الإسلام نفيسة منتقاة مشتراة أو مسروقة موزعة مفرقة في جميع أرجاء أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها، وأكبَّ عليها المجاهدون الصابرون الذين هجروا دنيا الناس المائجةَ بكل زخرف ومتاع، وعكفوا بين جدران صامتة مغلقة وأكداسٍ من الأوراق المكتوبة بلسان غير لسان أقوامهم، وفي قلوبهم كل اللهيب الممض الذي في قلب أوربة، والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام، تتوهج أفئدتهم نارًا أعتى من كل ما في قلوب رهبان الكنيسة، يقضون سَحابةَ النهار وزُلَفًا من الليل يفرزونها ورقة ورقة وسطرًا سطرًا وكلمة كلمة، بصبر لا ينفد وعزيمة لا تكلّ، ويكابدون كلَّ مشقة في الفهم والوقوف على أسرار المعاني المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربية أو غير العربية في كل علم ومعرفة

وفن، دينًا كان أو أدبًا أو لغة أو شعرًا أو تاريخًا أو علم بلدان (جغرافية) أو طبًّا أو رياضة أو فلكًا أو صناعات وآلات، كل ذلك يدرسونه بدقة ونظامٍ وترتيب، وبتعاون كاملٍ بينهم مهما تباعدت بلادُهم وأوطانهم. ثم لا تنقطع لهم رحلةٌ للاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام في قلب دار الإسلام وفي أطرافها يجسّون ويجربون ويختبرون، ويتعلمون ويسألون، ويجمعون كلَّ خبرة وكل تجربة وكل معرفة وكل صغير وكبير يعينهم على الدرس والاستفادة؛ لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية، ومِن فَهْم أسرار هذا العالم الغريب الذي كان بالأمس ممتنعًا على الاختراق.

اتحادهم على تباعد بلدانهم وذلك لاتضاح الهدف عندهم

ولما كانت هذه المخطوطاتُ التي يعكف نفرٌ منهم على دراستها متفرقةً في البلاد وحبيسةً تحت يد عددٍ قليلٍ جدًّا، قد يكون رجلًا واحدًا في قريةٍ أو دَيْر، عَمَدوا إلى نشر بعضِها مطبوعةً لتكون تحت يد كلِّ دارس في أيِّ بلدٍ كان من بلاد أوربة، ولكي تكون الفائدةُ أكثرَ تمامًا والجهدُ أكثرَ جدوى أنشأوا أيضًا مجلّات بكلّ لسان من ألسنتهم، يَنشُر فيها كلُّ باحث منهم نتائجَ بحثه ودراسته، ويَعرِض كلَّ تجارِبه وخبرته وملاحظاته؛ لتكون عونًا لكلِّ دارس وباحث، وهي مجلاتُ الدراسات الإسلامية أو الشرقية. بل سَمتْ همتُهم فبدؤوا صنع «جماهِر الإسلام» التي يسمونها «دوائرَ المعارف الإسلامية». وكذلك صار «الاستشراق» في أوربة كلِّها هيئةً واحدة لها هدفٌ واحد، وهمةٌ واحدة، وفهم واحد، وأسلوبٌ واحد، ونظر مشترك

واحد إلى حضارة دار الإسلام قديمها وحديثها، فلا تصدّق من يقول لك إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومَها لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة؛ فهذا وهم باطل. كانوا لا يطبعون قطّ من أي كتاب نشروه أكثر من خمسمائة نسخة، ولم تزل هذه سُنتهم إلى يومنا هذا، توزَّع على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكة، وما فضَلَ بعد ذلك وهو قليل جدًّا كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم يسعَوْا قطّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين كما يسوِّقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون بين هذه الملايين طلبًا لربح المال، هدفهم كان ما عرفتَ لا غير.

ومن يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عُرِفوا فيما بعد باسم «المستشرقين»، وهم أهمُّ وأعظم طبقة تمخضت عنها الحضارة الأوربية القائمة بين أيدينا اليوم، وهم الذين وقع عليهم العبء الأكبر في تيسير الأمر للزحوف الأوربية المتتابعة المستمرة التي اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها، وغيّرت وجهَ الحياة فيها تغييرًا بعيدَ الغَوْرِ لم يزل ساريًا إلى يومنا هذا.

حرب صليبية ليست بقعقعة السلاح

أيقَن ساسةُ أوربا ورهبانها وعلماؤها وجماهيرُ مثقّفيها من مستشرقين وغيرهم أنَّ الذي بلَغَتْه أوربا قد ضمن لها التفوق الحاسم، وأنهم مقبلون على زحفٍ شامل يخترق دار الإسلام، وتحددت يومئذ أهدافُ المسيحية الشمالية، وتحدَّدت وسائلها،

ولم يغب عن أحد منهم قطُّ أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية، لا بقَعْقعة السلاح، ما هو إلا سلاح العمل والعلم والتفوق واليقظة والفهم والتدبير، ثم الصبر والمكر والدهاء واللين والمداهنة وترك الاستثارة، استثارة عالَم ضخم مجهولٍ ما في جوفه، ولا قبل لهم بتدفُّق أمواجه الزاخرة، والتي كان الترك الظافرون طلائعَها الظاهرة لهم عِيانًا في قلب أوربة.

تصوير المسلمين بصورة تمنع الأوربي أن يُسلم

وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفي الوطء يخترق دار الإسلام في تركية والشام ومصر والجزائر، وهذا الزحف الصامت المصمم سوف يضم ألوفًا مؤلفة من أشتات الناس، ما بين تاجرٍ، وصانع، ومُغامر، ومدرِّس، وسائح، ومُبشِّر، وجندي، وسياسيّ، وراهب، وطالب معرفة، وأفّاق، وصفَّاق، ومكتسب، والنية أن تتكون من هؤلاء الأشتات جالياتٌ كبيرة تقيم في دار الإسلام، تُعاشر المسلمين فتطول عِشْرتهم أو تقصر، ولكل امرئ منهم اتجاهٌ أو هوًى أو أسلوبٌ أو فهْم. ولكنّهم داخَلَهم أمر مخوف، وهو أن هذه الجاليات ستخالطُ عالَمًا له دينٌ وحضارة باقية الآثار، كان له الغلبةُ والتفوُّق والسيادة من قبل قرونًا طوالًا كما جرَّبوا وعلموا، فأمرٌ مخوف أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقِرة في أنفسهم، تحميهم من التفرق والضياع فيه، وتحصِّنهم أيضًا من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهر أسلافٌ لهم غبروا، فصار حتمًا أن يكون في متناوَل هؤلاء صورة

للإسلام وحضارته، مكتوبة بدقة ومهارة، ومقنعة أيضًا لكل عقل متطلع، يصورها لهم خبيرٌ ثقة مأمون عندهم.

وبديهي أن يكون المستشرقون هم أسبقَ الناس إلى معرفة هذه الحاجة الملحّة التي تَضمَنُ للزحف الأكبر على دار الإسلام أن يَسير على هُدًى يَعصم أكبرَ قدر ممكن من أشتات الزاحفين حين يدخل دار الإسلام ليطول مقامهم بها ويجري بينهم وبين من يخالطونهم ما يجري بين الناس من التفاوض وتجاذب الأحاديث، يعصمه أن ينبهر بما يرى أو يسمع، أو أن تَضعُف حَمِيَّتُه، أو تَلين قناتُه، أو يتردَّدَ ويتلَجْلَج.

لا بد إذن من أساسٍ يرتكز عليه تفكيرُه، ومن صورةٍ سابقةٍ شاملة ثابتة يثق بها ويطمئن إليها، ويثق أيضًا بصدقها وأمانتها، حتى يتمكن من أن يرفض ما يَرى وما يَسمع، إذا هو خالف ما يعتقد أنه الصورةُ الوثيقة المأمونة التي سوَّغه إياها دارسٌ عارف بأحوال هؤلاء الناس.

المستشرقون هم الذين رسموا صورة المسلمين للأوربيين

وقد استقلّ المستشرقون بتحمُّل هذا، فكتبوا لجماهيرهم آلافًا من المقالات، ومئاتٍ من الكتب، تناولت كلَّ شيء يخص أُممَ دار الإسلام في ماضيها وحاضرها. كتبوا في القرآن، وفي حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته، وفي تفسير القرآن، وفي الفقه، وفي تفاصيل شرائع الإسلام، وفي تاريخ العرب والمسلمين، وفي الأدب، واللغة، والشعر، وفي الفنون والآثار، وفي علم

البلدان (الجغرافية)، وفي تراجم رجال الإسلام، وفي الفرق الإسلامية، وفي الفلسفة عند المسلمين، وفي علم الكلام، كتبوا وألَّفوا وصنَّفوا، لكن الهدف واحد لا غير: هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين بصورة مقنعة للقارئ الأوربيّ، وبأسلوب يدلُّه على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف، وبذل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوربي، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه، بعد خبرة طويلة وعرق وجُهد وإخلاص، حتى لا يشك قارئ في صدق ما يقرؤه، وأنه هو اللباب المصفى من كل كدر، والمبرَّأ من كل زيف، وأنه الحق المبين والصراط المستقيم.

جوهرُ صورة المسلمين عند الأوربيين!

كان جوهر هذه الصورة أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قومٌ بُداة جُهّال لا علم لهم، جياعٌ في صحراء مجدبة، جاءهم رجلٌ من أنفسهم فادَّعى أنه نبي مرسل، ولفَّق لهم دينًا من اليهودية والنصرانية، فصدَّقوه بجهلهم واتَّبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غَوْغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافةٌ وحضارة جلُّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم، حتى لغتهم كلها مسلوبة وعالةٌ على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية والحبشية، ثم كان من تصاريف

الأقدار أن يكون علماء هذه الأمَّة العربية من غير أبناء العرب (الموالي)، وأنَّ هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية كلِّها معنى.

هذا هو جوهر الصورة التي بثَّها المستشرقون في كل كتبهم عن دين الإسلام، وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم، وأنَّ هذه الحضارة إنما هي إحدى حضارات (القرون الوسطى) المظلمة التي كان العالم يومئذ غارقًا فيها - يعنون عالمهم هم - يجري عليها حكمُ قرونهم الوسطى! بثُّوا تلك الصورةَ في كل كتبهم بمهارةٍ وحِذْقٍ وخُبثٍ مُعْرِق، وبأسلوبٍ يُقنع القارئ الأوربي المثقف الآن كلَّ الإقناع، وتنحطُّ في نظره حضارةُ الإسلام وثقافته انحطاطَ (القرون الوسطى)، ويزداد بذلك زهوًا بأن أسلافه من اليونان والآريين كانوا هم ركائزَ هذه الحضارة المزيَّفة الملفَّقة دينًا ولغةً وعلمًا وأدبًا وشعرًا، ويزداد بذلك الأوربي - أيًّا كان - غطرسة وتعاليًا وجبرية، ولا يرى في الدنيا شيئًا له قيمةٌ إلا وهو مستمَدٌّ من أسلافه اليونان والآريين والهمج الهامج!!.

جعْلُ المستشرقين صورةَ المسلمين التي رسموها في جميع كتبهم

واستطاع المستشرقون أن يجعلوا هذه الصورة حية متحركة في جميع كتبهم ومقالاتهم ودراساتهم ومباحثهم على اختلافها، حتى الدراسات التي تستعصي على قبول هذه الصورة واضحةً لم تخلُ من غمزٍ خبيء ولمز خفي يستدعي حضور هذه الصورة بطريقة ما.

انطلاق أساطيل أوربا المسيحية لتطوِّق ديار المسلمين

وفضَّت المسيحية الشمالية قيودَ الحصار عن نفسها، وخرجت جحافلُها مكتسحةً تجوبُ البحر والبر، انطلقت الأساطيلُ من شواطئ أوربة مزوَّدةً بالعُدّة والعتاد، والرجال الأشداء، والمغامرين، والعلماء، والرهبان، وهدفها أن تطوِّق دار الإسلام محيطةً بها من شواطئ المغرب إلى شواطئ الهند، تتحسَّس مواطنَ الضعف في أقاليمها المتطرِّفة، فانقضُّوا على الضعيف والعاجز والغافل، وخادعوا ونافقوا، واستغفلوا وأرهبوا، واستنزفوا ونهبوا، وازدادوا شهوةً وشراهة وجُوعًا إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام.

سفحُ الأوربيين دماء الملايين من سكان أمريكا

وفجأةً، وبمعونة البحّارين المسلمين العرب عثر كولمبس (٨٥٥-٩١٢هـ) على أرض الهنود الحمْر (أمريكا). وما هو إلا قليل حتى تدفَّق السيل الجارف من أوربة يجذبه بريقُ الذهب والغنى وملأ المغامرون القساةُ الغلاظ الأرضَ البِكْر، وزحفوا فيها واستباحوها، وسفحوا دماء الملايين سفحًا مبيرًا غدرًا وخِسّة، لا يردَعُهم رادعٌ عن استئصال شأفتهم بقسوة وعنف، وشفى كل أوربي غليلًا كان في قلبه معدًّا لدار الإسلام، واتجهت أساطيلُهم إلى إفريقية تختطف آلافًا مؤلَّفةً من الآمنين السُّود مسلمين وغيرَ مسلمين، رجالًا ونساءً وصغارًا، يحملونهم في السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة أرضِ الهنود الحمْر، وتَهلِك في هذه الرحلات آلافٌ كثيرة

منهم تحت السياط، وتبقى آلافٌ قليلة تُلقَى على البر لتكون تحت أيديهم بهائمَ مسخَّرةً بالذُّلّ لعمارة الأرض. وظهر الفساد في البر والبحر، وبلغت أوربة مبلغًا يزيدُها فجورًا وشراهةً وسفكًا للدماء، وغطرسةً فوق ذلك، تزداد على الأيام تعاليًا في نشوةٍ عارمة نَشْوةِ السكران الثَّمِل إلى جانبها إفاقةٌ من سُكْر! وصارت أوربة عالَمًا مخيفًا مرهوبَ الجانب، وتزدادُ كلَّ يوم ثقافةً وعلمًا وفهمًا ويقظةً وتجرِبةً وخِبرةً في كل خير وشر، وتزدادُ أيضًا نفاقًا وخُبثًا ومكرًا وغدرًا بالآمنين حيث كانوا، في أرجاء عالمٍ كانت تحجبه عنهم دارُ الإسلام قرونًا طويلة.

ضعف دار الخلافة

أما دار الإسلام، فعلى الأيام وهَنَتْ قوة طليعته المسلمة الناشبة في قلب أوربة، وصارت دارًا محصورة في الجنوب، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية في الشمال.

وكذلك بدأت حضارة عتيقة تتضعضع قواها وتَرُثّ حبالُها، وقامت في الأرض حضارة جديدة غُذِيت بالدم المسفوح، ومُزجت ثقافتها بالمكر والغدر والدهاء والخبث، تؤزُّها نار أحقادٍ مكتَّمة، ثم صارت لهيبًا يؤجج أجًّا، حضارة سوف تطبق وجه الأرض، وهي بذلك كله حضارةٌ إنسانية عالمية! أليس كذلك؟ ويزيدها إنسانيةً وعالمية أنها جاءت مبشرةً بدين جديد عقيدته مبنية على البغضاء والحقد والجشع والغدر وسفك الدماء.

تغلغل المستشرقين في ديار المسلمين وخبرتهم بأحوالها

ومع تلك الأساطيل الفاجرة خرجت من مكامنها أعدادٌ وافرة من رجال يُجيدون اللسان العربي وألسنة دار الإسلام الأُخَر، ومنهم رُهبانٌ وغير رهبان، وركبوا البرّ والبحر، وزحفوا زَرافات ووُحدانًا في قلب دار الإسلام، على ديار الخلافة في تركية، وعلى الشام، وعلى مصر، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة، خرجوا وفي القلوب حمية الحقد المكتَّم، وفي النفوس العزيمة المصممة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول التنبه والذكاء، وعلى الوجوه البِشْر والطلاقة والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والخلابة والمماذقة، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زِيّ، وتوغَّلوا يستخرجون كل مخبوء كان عنهم من أحوال دار الإسلام، أحوال عامته وخاصته، وعلمائه وجهاله، وحلمائه وسفهائه، وملوكه وسُوقتِه، وجيوشه ورعيته، وعبادته ولهوه، وقوته وضعفه، وذكائه وغفلته، حتى تدسسوا إلى أخبار النساء في خدورهن! فلم يتركوا شيئًا إلا خبروه وعَجَمُوه، وفتّشوه وسبروه، وذاقوه واستشفّوه. ومن هؤلاء ومن خبرتهم وتجرِبتهم خرجت أهمُّ طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية «طبقة المستشرقين الكبار»، وهم الذين على علمهم وخبرتهم وتجارِبهم رست دعائمُ «الاستعمار» ورسخت قواعد «التبشير»، والتقت حلْقتا البِطَان هذه المرة على دار الإسلام، واسترخت حلقتاه عن المسيحية الشمالية.

وكان هذا الجهازُ الخبيثُ المتخفِّي في عباءة العلم والبحث (جهاز الاستشراق) قد اكتسبَ خبرةً واسعة جدًّا بدار الإسلام وأهلها وسكّانها، منذُ انساح في قلب دار الإسلام في تركيا وهو يَدِبُّ مستخفيًا في أرجائها، ثم في الشام، ومصر، وجوف إفريقية وممالكها المسلمة، وفي دار الإسلام في الهند أكثرَ من مائة وخمسين سنةً، كانت **خبرة متغلغلة بجماهير الأمة مجتمعةً، ثم بطوائفها المختلفة، ثم بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحدًا واحدًا معروفَ الاسم والمكان والحركة**، كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوّة وبمكامن الهوى الميّال الذي يَستجيبُ، والإرادة المصمّمة التي تمتنع عن الاستجابة، أي كانت خبرةً مدروسةً منظَّمة واضحةَ المعالم في ذهن الاستشراق.

واكتسب الاستشراقُ لنفسه أعوانًا من اليهود وشُذّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغيرِ دار الإسلام، يستأجرهم لتوسيع رقعة خبرته تارة، ولبثِّ أفكارٍ مدروسةٍ بين جماهير دار الإسلام خاصّتها وعامتها وللتحكُّم في تصريف أمورِه وبلوغ غاياته تارة أخرى، ثم للتمكُّن من إشعالِ نار الفتنة حين يقتضي الأمر إحداثَ فتنٍ تفرِّقُ شملَ الناس وتمزِّقهم وتَشغَلُهم عن الكيد الخفيّ الذي يُراد بهم، كلُّ هذا كان يتم في هدوءٍ وصبرٍ وتستُّر، ومن وراء الغفلة، غفلة أهل دار الإسلام عن جُذور قضيّتهم، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجوَّل في الطرقات والشوارع.

تكوين الاستشراق جاليات تقيم في ديار المسلمين

تطاولت السنون، واستطاع الاستشراق أن يكوِّن في قلب دار الإسلام جالياتٍ صغيرةً متخيَّرةً بفهمٍ ودقّة من شعوب المسيحية الشمالية، عمادُها الرجال الذين يحترفون التجارة ويعرفون العربية وغيرَها من لغات دار الإسلام، ويقيمون في دار الإسلام مُددًا طويلة حتى يألفوا الناس ويألفَهم الناس، ويتقوَّضَ جدارُ التوجُّس والتخوُّف والشكّ في هذه الأشباح الغريبة التي تتجوَّل في الطرقات والشوارع آمنةً غيرَ مفزَّعة ولا مروَّعة.

دخول الأوربيين مرحلة حاسمة ليردوا عنهم الخزي الذي أحدثه محمد الفاتح

ودخلت أوربة كلُّها في عزيمة حاسمة لترد عن عِرضها العارَ، وتَدْفع الخزي وذلَّ القهر الذي أحدثه محمد الفاتح ورجالُه من المسلمين الظافرين.

فكانت يقظةٌ محسوسة في جانب، وغفوةٌ لا تُحَس في جانب، وشال الميزان، وانطلقت الأساطيل الأوربية تطوِّق دار الإسلام من أطرافها البعيدة، وشيئًا فشيئًا فقدَتْ دار الخلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة، يومئذ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان، مائتا عام، ويومئذ أَنِسَ قلبُ دار الإسلام رِكزًا خفيًّا فأرهف له سمعَهُ، سمع نقيض أركان دار الخلافة وهي تتقوض فتوجس توجُّسًا غامضًا لشرٍّ مستطير آتٍ لا يدري من أين.

يقظة في ديار الإسلام

فهبَّ من جوف غفوة المسلمين الغامرة أشتاتٌ من رجال انبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها، رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم فهبُّوا بلا تواطؤ بينهم، كانوا مفرَّقين في جنبات أرض مترامية الأطراف، متباعدة أوطانهم، لا يجمعهم إلا هذا الذي توجَّسوه في قرارة أنفسهم مبهَمًا من خطرٍ محدق، أحسوا الخطر فرامُوا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام، خلل اللغة، وخلل العقيدة، وخلل علوم الدين، وخلل علوم الحضارة، وبأناةٍ وصبرٍ عملوا، وألّفوا، وعلَّموا تلاميذهم، وبهمة وجِدٍّ أرادوا أن يُدخِلوا الأمة في عصر النهضة نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام.

فزَعُ المستشرقين من يقظة دار الإسلام

فلما كان زمان اليقظة والنهضة في دار الإسلام في مصر خاصة في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري هبَّ الاستشراق هبة الفزع الأكبر وكان نذيرُه الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية بالخطر المدلهمّ الذي تهدِّدها به اليقظة والنهضة التي انبعثت من مصر، يقظة اللغة على يد الشيخين الكبيرين البغداديّ ١٠٣٠-١٠٩٣هـ، والزبيديّ ١١٤٥-١٢٠٥هـ، وتلاميذهما رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ويقظة علوم الحضارة على يد الشيخ الجبرتي الكبير ١١١٠-١١٨٨هـ، وتلاميذه رَحِمَهُمُ اللَّهُ، يقظة في ديار تضمُّ أقدمَ بيتين من بيوت العلم على ظهر الأرض، عاشا جميعًا متواصلَيْن اثني عشر قرنًا موئلًا للعلم والعلماء، هما الجامع العتيق بالفسطاط جامع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والجامع الأزهر بالقاهرة، وهما

اسمان يتردّدان في أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فاليقظة التي تأتي من قِبَلهما سوف تؤدي إلى يقظة دار الإسلام كلِّها بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب بقيادة محمد بن عبد الوهاب ١١١٥-١٢٠٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير.

صراع دول أوربا على نهش أطراف دار الإسلام

فلما فزِع الاستشراق فزعتْ معه كل المسيحية الشمالية ودُوَلها التي كانت أساطيلها تطوِّق دار الإسلام من أطرافها البعيدة، وتتوغَّل بسيطرتها على سواحلها، متحسِّسة طريقَها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف بالدهاء وبالمكر وبالخديعة، وبالتنمُّر أحيانًا حين يتطلب الأمر التنمُّر والترويع، كانت دُول أوربة كلّها في صراعٍ مستميت فيما بينها على نهش أطراف دار الإسلام، واستنزافِ ثرواتِها وكنوزها وخيراتها بشراهةٍ لا تشبع، وكان أكبر الصراع المتوحِّش على الطرف البعيد في الهند حيثُ لا تستطيع طليعةُ الإسلام في دار الخلافة تركية أن تصنع لإنقاذها شيئًا ذا بال، بل هي يومئذ مشغولةٌ أيضًا بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر.

أول جهاز استعماريّ في ديار الإسلام هو الشركات الأوربية

كان أكبر دولتين يومئذ إنجلترا وفرنسا، وكان السبقُ لإنجلترا، فأنشأت ما يسمُّونه «شركة الهند الشرقية البريطانية»، وهو أول جهازٍ استعماريّ قويّ، وذلك في سنة ١٠٠٩-١٢٧٥هـ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازَها الاستعماريّ

باسم «شركة الهند الشرقية الفرنسية» ١٠٧٥-١١٨٣هـ، ولا يَغرُرك لفظ «شركة»!، فإنه في الحقيقة جيشٌ غازٍ مسلّح، مهمّته النهبُ والسلب، وقطع الطريق، وتخويفُ الضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفعًا.

صراع الشركتين الأوربيتين في الهند

بدأ الصراع بين الشركتين (أي اللِّصَّين) في الهند صراعًا مستحرًّا مستميتًا، وظل محتدمًا حتى قضت الشركةُ البريطانية على الشركة الفرنسية قضاءً مبرَمًا، على يد القائد البريطاني المحنك روبرت كلايف في معركة فاصلة سنة ١١٧١هـ، وطردتها من الهند كلِّها سنة ١١٧٥هـ، فخرجت هي والإسبان وغيرُهم من حَلْبة الصراع في الهند داميةً وجوههم وأكبادهم، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصَّيد الغرير.

في ذلك الوقت جاء نذير الاستشراق للمسيحية الشمالية بالخطر المدلهمّ الذي تهدِّدهم به يقظةُ دار الإسلام بقيادة محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب وظهور الجبرتي الكبير في مصر، والزبيديّ، ومن قبله البغدادي، كان نذير الاستشراق مروِّعًا وحاسمًا.

أما إنجلترا صاحبة الشركة الهندية الشرقية البريطانية فأسرع مستشرقوها إسراعًا حثيثًا إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية، وبالدهاء والمكر والدسائس جاءت في زيّ الناصر والمعين لتتدسَّس إلى يقظة

ابن عبد الوهاب؛ لتتخذ بذلك عندها يدًا، وبهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها، وأبعدت إنجلترا الرحلة من ناحية أخرى تؤلِّب عليها من حولها لتطوِّقها تطويقًا يحول بينها وبين الانتشار، وهذا هو أسلوبُ بريطانيا حيث حلت من الأرض.

وأما فرنسا التي عادت من الهند تَلعَق جراح هزائمها فكان وقعُ النذير مختلفَ الأثر مختلفَ الأسلوب، في قصة طويلة مِن تنبُّه الاستشراق لما يجري في دار الإسلام، فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد في الهند فإن لفرنسا لنصيبًا قريبًا تُعِدّ العُدّة للظفَر به، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيّق، ومن قبل ظلّتْ تدبّر الأمر زمنًا طويلًا لتظفر بهذا النصيب في مصر وفي الجزائر، ومعنى ذلك أنها عادت مرةً أخرى تفكّر في اختراق دار الإسلام، الأمرِ الذي كان مستعصيًا نحو عشرة قرون أو أكثر، وكان نذير الاستشراق يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه اليقظة المخوفة العواقب.

تفاقم أمر الجاليات التي غذاها المستشرقون في مصر

كانت الجاليات الصغيرة قد صارت يومئذ جالياتٍ كبيرة من تجار شعوب المسيحية الشمالية وتفاقم أمرها حتى أفزع المماليك المصرية، وارتابوا في هذه الكثرة وخامرهم الشكّ في مقاصدهم وفي تحركاتهم، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم، ويسومونهم العنت والمشقة حتى تبور تجارتهم، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر، فأوعز الاستشراق الفرنسي خاصة إلى

التجار أن يجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية، وعلى رأس هؤلاء التجار «مجالون» الذي كان تاجرًا مقيمًا في مصر أكثر من ثلاثين سنة، والذي ظل يقدِّم إلى حكومة فرنسا التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردعهم وذلك سنة ١٢٠٧هـ، وما بعدها ثم رحل مجالون إلى فرنسا سنة ١٢١٢هـ، ليحضّ رجال الدولة على احتلال مصر، فاستجاب له تاليران وزير الخارجية ونابليون بونابرت، فكانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ، أي بعد تحضيضه بسنة واحدة.

ظهور المستشرقين على حقيقتهم في حملة نابليون على مصر

وتكاثر عدد المستشرقين حَمَلة هموم المسيحية الشمالية، وتوافدوا على مصر في كل زيّ، وأخطرهم شأنًا مَن لَبِس منهم زيّ أهل الإسلام، وجاور الأزهر، ولازم حضور دروس المشايخ الكبار، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم، وخالط جماهير طلبة الأزهر، مسلمًا لا يرتاب فيه أحد، ولا يعرف أحد حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها، وإنما هو مسلم كسائر المسلمين الذين يجاورون في الأزهر من كل جنس ولون، وكثير من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامة طويلة متمادية، كالمستشرق الداهية المحنك والمتستر «فانتور»، الذي قضى أربعين سنة يتجوّل في دار الإسلام، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية فكان شيطان نابليون ومستشاره، وخليله ونَجِيَّه

الذي لا يفارقه في الحَلّ والتَّرحال، وكان كما قال الجبرتي لبيبًا متبحِّرًا، يعرف اللغات التركية، والعربية، والرومية، والطلياني، والفرنسي، ومع أن الجبرتي الصغير لم يحدثنا عنهم قطُّ في تاريخه قبل الحملة الفرنسية إلا أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية، فقال: (وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجَمٌ بلغتهم، ورأيت عندهم كتابَ الشفاء للقاضي عياض، ويعبرون عنه بقولهم «شفاء شريف»، والبردة للبوصيري، ويحفظون جملة من أبياتها، وترجموها بلغتهم، ورأيت بعضهم يحفظ سورًا من القرآن، ولهم تطلُّع زائدٌ للعلوم، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون في ذلك الليل والنهار، وعندهم كتبٌ مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها، بحيث يسهُل عليهم نقلُ ما يريدون من أيّ لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت)! وقال عن أبيه: (وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة، وذلك في سنة تسع وخمسين ومائة وألف، وأهدَوْا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياءَ نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم **ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، وأخرجوه من القوة إلى الفعل**، واستخرجوا به الصنائع البديعة، مثل طواحين الهواء، وجرّ الأثقال، واستنباط المياه، وغير ذلك)، وهذا الذي حدثنا عنه الجبرتي بعد الحملة لا يتم لأحدٍ إلا بعد أن يكون قد أطال الإقامة في دار الإسلام، وبعد التلقِّي الطويل عن المشايخ الكبار والصغار، وبعد الاندماج الكامل بأهل الإسلام. وإغفالُ الجبرتي الحديثَ عن أحد منهم قبل الحملة دليلٌ بيّن على

أن ذلك كله قد تمّ في خفاء وتستر لم يُتح لمثل الجبرتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتنبّه لهم، أو أن يعرِف من أمرِ وجودهم في مصر شيئًا يحمله على التنبُّه. و«فانتور» الذي أقام في دار الإسلام في مصر وغيرها أربعين سنة لم يعرف الجبرتي عنه شيئًا إلا بعد مجيئه مرافقًا للحملة الفرنسية، فلقيه عندئذ مكشوفَ القناع، فوصفه لنا بما وصفه. ولم تكن إقامة المستشرقين في دار الإسلام في مصر لمجرد طلب العلم والمعرفة، بل كانوا يتجوَّلون ويراقبون عمل الجاليات التي حشدوها وتولَّوا تغذيتها وتربيتها على ما في قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية، وأيضًا كانت إقامتهم لمراقبة يقظة دار الإسلام التي أفزعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية، وأيضًا لتكون خبرتهم بجماهير الأمة وبطوائفها المختلفة خبرةً مدروسة منظمة واضحةَ المعالم.

وفي خلال هذه الفترة ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألماني «ليبنتز» لويسَ الرابع عشر الفرنسي على غزو مصر في سنة ١٠٨٢هـ وبين صرخة «مجالون» في سنة ١٢٠٧هـ وسنة ١٢١٢هـ كان الاستشراق يتولى في مصر عملًا خبيثًا آخر، يجنّد فيها جندًا من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم، ويحمِّلهم ما في قلبه من هموم المسيحية الشمالية، ويغذِّيهم بالأحقاد المكتَّمة وبلهيب بغضائه الغائرة في العظام، ويدرِّبهم على الدهاء والمكر وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق في معاشرة أهل دار الإسلام، ويُعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبه والمراقبة، ويحشد

معهم أيضًا طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين في دار الإسلام في مصر، وقد ظهر أثر هذه الحشود جليًّا واضحًا في زمان الحملة الفرنسية، وتستطيع أن تقف على جليّة أمر هذا البلاء فيما أثبته الجبرتي الصغير في تأريخ الحملة الفرنسية.

نشاط المستشرقين في التأثير على المشايخ

وكان أكبر نشاط الاستشراق موجَّهًا إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرات، حتى خضعوا ووقَّعوا على وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفسهم، ويتعهدون فيها برفع المظالم التي أوقعوها على جماهير الأمة، وبالتزام أوامر الشرع، ولكنهم لم يَفُوا بذلك، فنقضوا الوثيقة، وعادوا بعد شهرٍ واحد إلى جَوْرهم ومظالمهم وزيادة، كما قال الجبرتي، ولا شك أن نقض هذه الوثيقة قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضبًا وكراهية لطائفة الأمراء المماليك الذين لا يَرعَوْن لله عهدًا ولا ذمة، ولا يقيمون للشرع حُرمة، ولا للمشايخ هيبة ولا كرامة، كان هذا كله معلومًا واضحًا عند الاستشراق وأعوانه وحواشيه.

فلما دنا نزول جند الفرنسيس ثغر الإسكندرية كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضة، فلم يهتم أمراء المماليك بشيءٍ من ذلك ولم يكترثوا به، اعتمادًا على قوّتهم، فقالوا وزعموا أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم. وعندئذ خرج الاستشراق من مكامنه، وخرج المستشرقون الذين كانوا يتزيَّوْن بزيّ أهل الإسلام،

ويجاورون في الأزهر لطلب علم الدين والدنيا مسلمين، ويخالطون المشايخ الكبار في دروسهم وبيوتهم، وطافوا على المشايخ الكبار، وبرفق ودهاء ومكْرٍ فاتحوهم في شأن الفرنسيس الذين شاع أنهم قد دنا نزولهم أرض مصر، فنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين بيَّنُوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيس، وأن الذي يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار، ويظلمون تجارهم بأنواع الإيذاء والتعدي، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام في مصر بألوان من الجَوْر والظلم والمهانة، وإقدامِهم على مخالفة الشرع، وعلى نقض العهود والمواثيق، وجُرأتِهم على هيبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم، وأن كل هدف الفرنسيس هو رفع الظلم الواقع على تجارهم، وتخليص حق الأمة الإسلامية من يد الظالمين، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة، ووضع أمور البلاد في يد العلماء والفضلاء من أهالي مصر.

وظلوا يفتلون لهم في الذروة والغارِب برفق ودهاء، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيس لم يقدموا على نية القضاء على دولة المماليك إلا باتفاق مع السلطان العثماني؛ لأنهم أحباؤه المخلصون، والمماليك كثيرًا ما امتنعوا عن طاعة السلطان، ولم يمتثلوا لأمره، وأنهم يحترمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن العظيم! وأنهم هم الذين نزلوا في رومية وخربوا كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة المسلمين، واستمع المشايخ لهذا وأمثاله، ولقلة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ألان مثلُ

هذا الحديث قلوبَ أكثرهم، وغرتهم الأماني وعدُّوه نصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وكان آخرون من المستشرقين لهم مودة بالمماليك يفاوضونهم ويهوِّنون عليهم شأن الفرنسيس، ويمنونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدموا على دخول القاهرة، ويزيدونهم إصرارًا على الغرور بقوتهم، وأنهم إذا جاءت الإفرنج فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم. أما الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ فكانوا يخوفونهم من تهور المماليك، وأنهم لا علم لهم بقوة الفرنسيس وما في حوزتهم من المدافع والأسلحة مما لا يملك مثله المماليك، وأنه إذا وقعت الواقعة لم تغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم، وأنهم سرعان ما يفرون من وجه الفرنسيس، ثم يتفرقون ويتركون القاهرة مكشوفة بلا حام يحميها أو يدافع عنها.

هدف الحملة الفرنسية هو وأد اليقظة في دار الإسلام في مصر

وقيض الله لفرنسا قائدًا أوربيًّا محنّكًا، ضرَّسته الحروبُ في أوربة، حتى صار اسمه مثيرًا للرعب في القلوب بأنه قائد لا يقهر! هو الصليبي المكيافلي المغامر المفتون الفاجر نابليون ١١٨٣-١٢٣٧هـ، فلما فرغ من حروبه في أوربة منصورًا أصاخ سمعه لنذير الاستشراق ولنصحه وإرشاده، فقدّر أن الحين قد حان ليكون أوّل قائد أوربي يخترق قلب دار الإسلام ويداهم اليقظة التي أرَّقت منام الاستشراق، وأن يبطش بها في عقر دارها بطشةَ جبار

لا يُبقي على شيء، وفوق ذلك كله أن يرد لفرنسا هيبتَها التي ضاعت يوم طردتها بريطانيا طردًا مخزيًا من دار الإسلام في الهند البعيدة.

وفي ١٨ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هوَى نابليون هُوِيَّ العُقاب على مهد اليقظة في الديار المصرية، هوى على الإسكندرية فجأةً، بجحافله وأساطيله مزوَّدة بكل أداة للحرب جديدة مما تمخض عنه علم أوربة يومئذ، مصطحبًا معه عشرات من صغار المستشرقين وكبارهم، وطائفة من العلماء في كل علم وفن، معهم كلُّ غريبة مما كشف عنه العلم المستحدث، فاستباحوا الإسكندرية ودمّروا ما دمّروا، واجتاحوا بلاد الوجه البحري يحرقون القرى ويسفكون الدماء، وسبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٢هـ، كتبه المستشرقان فانتور ومارسل، فرأى المشايخ فيه جُلَّ ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيَّوْن بزي الإسلام، وجاءتهم أنباءُ حرائق القرى وسفك الدماء حين قاوم المصريون الجيش الغازي، كما توعَّد نابليون في منشوره كل من يقاومه. ثم طوى الأرض طيًّا مكتسحًا في طريقه شمال مصر، وبعد أيام قلائل وصل مشارف القاهرة ولقي جيشُه جيش المماليك، ودارت الدائرة على المماليك، وأخذهم الرعب وتفرقوا شَذَر مَذَر، وتركوا القاهرة عارية مكشوفة ليس لها حام يحميها، فدخلها في العاشر من صفر سنة ١٢١٣هـ، فكان ذلك كله مصداقًا لما سمعه المشايخ من المستشرقين، فوجفت قلوبهم وخافوا أن يحُلّ بالقاهرة ما حلّ بقرى الوجه البحريّ من الفظائع،

وذُعر الخلق، فبدأ يداهن الناس، وحاول أن يستميل المشايخ في رجال الأزهر كي يستجيبوا لمخاتلته، فلما رأى امتناعهم على تطاول الأيام عَجِل فأطلق جنوده الغزاة ليُطفئوا ما استقرّ في قلوبهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام، ويَصِف الجبرتيّ المؤرخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما حدث في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ، قال: (بعد هجعةٍ من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومرُّوا في الأزِقّة والشوارع لا يجدون لهم ممانعًا، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدَّموا ما وجدوه من المتاريس، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول، وتفوَّقُوا -أي قاءوا- بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسَّروا القناديل والسهارات، وهشَّموا خزائن الطلبة، والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأواني والقصاع، والودائع والمخبآت، بالدواليب والخِزانات، ودشَتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخّطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقَوْها بصحنه ونواحيه، وكل مَن صادفوه به عرَّوْه، ومن ثيابه أخرجوه)، وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها.

فالحملةُ الصليبية الفرنسية التي استجابت لنذير الاستشراق كان الاستشراق مستكنًّا في أحشائها وأحشاء قائدها العظيم نابليون، يرشده

الاستشراق ويهديه، وهي لم تُقدِم على اختراق دار الإسلام في مصر إلا وهي مزوَّدة بأدقِّ التفاصيل عن هذه الأرض وسكانها، ومداخلها ومخارجها، ومشايخها وعلمائها، وعامتها وسوقتها، ونسائها ورجالها، وجيشها وشعبها، جاءت ومعها الدجالون العتاة علماءُ الحملة الفرنسية ومستشرقوها وخبراؤها، وأعوانها من اليهود وشذّاذ الآفاق، وكلهم يدٌ واحدة على إحداث انبهار مفاجئٍ، يصدم وعي الشعب خاصته وعامته صدمةً تُذهِلُه عن المكر المستور المفضي إلى تدميرِ روح المقاومة، أو إضعافِها إضعافًا يُتيح للغزاة تثبيتَ أقدامهم في الأرض، والسيطرةَ عليها سيطرةً كاملة حتى لا تدع للمقاومة طريقًا إلا طريق الاستسلام العاجز للمصير المظلم.

المصير المظلم

كان أول الطريق إلى هذا المصير المظلم إنشاء الديوان، وهذا الديوان أمَر بإنشائه نابليون منذ أوّل يوم دخل فيه القاهرة الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣هـ، وذَكَر في أمْر إنشائه أسماءَ مشايخ بأعيانهم يتكوَّن منهم الديوان! تسعة من المشايخ الكبار، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون، ثم استجاب أيضًا ثلاثة آخرون لتمام التسعة، والذي دعا هؤلاء للاستجابة خوفُهم على مصير القاهرة التي تُركت بلا حام يحميها، بعد أن خذلها حماتها من صناديد الحرب والقتال، وهم المماليك المصرية، فلم ير المشايخ سبيلًا إلى حقن دماء العامة رجالًا ونساءً إلا المهادنة وإلا الصبر والسكينة، حتى يكشف الله هذه الغمة بما شاء سبحانه، فكانت

استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين الديوان منهم أوّلَ زلة، وكانت هذه الاستجابة أيضًا أوّلَ نجاح حازه الاستشراق في تدجين بعض المشايخ الكبار.

وهذا الذِّكر المفاجئ لأسماء المشايخ دليلٌ على أن الأمر كان مُعَدًّا إعدادًا كاملًا قبل أن تطأ قدمُه أرض مصر، وأن الأسماء قد اختيرت بعد تدبيرٍ محكَم، ودراسةٍ قام بها الاستشراق وأعوانُه منذُ فكّر في شن الحملة على مصر، وقاعدةُ اختيارهم: «أن يكونوا من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفايتِهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين»، ومعنى ذلك أنه يريد أن يُودِع سلطةَ الحكومة الظاهرة المموَّهة في يد فئةٍ ذات هيبة عند الناس، وأن يكونوا جميعًا ممّن يمكن أن يستجيبوا بشكلٍ مّا استجابةً تَدين بالولاء لجيشه الغازي، وهذا شيء لا يُقدَم على مثله بهذه السرعة إلا بعد خبرةٍ سابقة بأصحاب هذه الأسماء، وبمواطن ضعفهم التي تقعُد بهم عن المقاومة وتسوِّل لهم أن يحسنوا استقبال الفرنسيين الذين انتهكوا حرمةَ ديارهم وأوطانهم، ولا سبيل إلى معرفة ذلك كله إلا عن طريق جهازٍ مدرّب قد طال عهدُه باختبار الناس وتقصِّي أحوالهم من قريب، وهذا الجهاز هو جهاز الاستشراق، وكل المنشورات التي كان أصدرها هذا المكيافلّي لتُلقى وتذاع على المصريين منذ أول دخوله أرض مصر تدلُّ صياغتُها على أن صاحبها وصاحب مضمونها له خبرةٌ طويلة بألفاظ أهل الإسلام وبعقائدهم ومشاعرهم.

وكان يظن أنه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته على أن يخدع أمةً كاملة عن قتال عدوّها الغازي، فكان ردُّ الأمة على خديعة الديوان الفاضحة هو اندلاعَ الثورات في أقاليم الوجه البحريّ والصعيد، وأكبرها ثورة القاهرة وأحيائها في يوم السبت ١٠ جُمادَى الأولى سنة ١٢١٣هـ، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام، فارتكب في قمعها من القسوة والتدمير وذَبْح الرجال والنساء أيضًا وسَفْح الدماء الغزيرة ما ارتكب، ولكنه نذر -وأوفى بنذره - أن يزيدَ فيُضحّي عند مشرِق كلِّ شمسٍ بخمسة أو ستة تُقطع رؤوسهم ويُطاف بها في أنحاء القاهرة، ولا شكّ أنّ هؤلاء الخمسة أو الستة هم من طلاب العلم في الأزهر، ومن المحرِّضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة دار الإسلام، وأن الاستشراق هو الذي كان يقدّمهم لهذا الجزّار، وأنه كان يتخيَّرهم له؛ لأنه كان على معرفةٍ سابقة بهم، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة الجبرتي الكبير والزبيدي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، أي أنهم كانوا من طلائع اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شيء لوأدها في مهدها.

وكان رأس الاستشراق في الحملة الفرنسية هو «فانتور» فهو الذي أوهمه أن تدجين المشايخ الكبار من رجال الأزهر في الديوان ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام في مصر، حتى تستكين له وتخضع، وظلّ هذا كامنًا في أحشاء الجزار ولم تعظه ثورة القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهر من مجيئه، ولا وعظته هزيمتُه في عكّا الآتي ذكرها؛ فإنه بعد فراره بنفسه

من مصير محتوم كتب رسالته إلى كبش الفداء «كليبر» خليفتِه على مصر، يقول له فيها: (**يجب أن تحذر روح التعصُّب وتنوِّمها إلى أن تتمكَّن من استئصالها**. إذا حُزتَ ثقة كبار مشايخ القاهرة فإنك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها، وأفكار كلِّ زعيم من زعماء الشعب. لا شيء أقلّ خطرًا من المشايخ الذين يَرهبون القتال ولا يعرفون طرقه، ولكنهم مثلُ القسِّيسين يُوحُون بالتعصّب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين).

مشايخ ديار الإسلام ليسُوا كالقسّيسين في ديار المسيحية

إن تدجين المشايخ الكبار في الديوان لم يمنع الثورةَ أن تقوم، وذلك لأن المشايخ الكبار لهم عند عامة المسلمين هيبةُ العلم، وطاعتُهم واجبةٌ علينا فيما هو طاعةٌ لله ولرسوله، ولكنّ هيبةَ العلم ليست بمانعةٍ جماهيرَ الأمة من عصيانهم وتَرْك طاعتهم إذا هم خالفوا صريحَ أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغُزاة لدار الإسلام؛ فإن قتال الغزاة عند المسلمين واجبٌ وفرضُ عين على كلِّ قادر على القتال إلا أن يخافوا أن يَصطلمهم العدوّ لقلة عَددهم وكثرة عدد العدوّ، فجائز عندئذ أن يُلقوا إليهم السلم، بيد أن في قتالهم الشهادةَ، وهي إحدى الحُسنيين. وفي حالة هذا الجزار أنّ جيشه قلةٌ فاجرة تغزو كثرةً مسالمة تفرّق عنها حماتُها من جيش المماليك المصرية فصار واجبًا على الكثرة أن تقاتل هذه القلّة بكل سلاح ما استطاعت إليه سبيلًا، ولذلك لم تستمع الأمة عامتها وخاصتها للمشايخ المدجّنين في الديوان الذين لم يروا سبيلًا إلى حقن دماء العامة رجالًا ونساءً إلا مهادنة

الغازي، واستمعت لصغار طلبة العلم في الأزهر الذين رفضوا نصيحةَ المشايخ الكبار بالمهادنة، رفضوها طاعة لله ولرسوله ﷺ وقامت ثورة القاهرة والأقاليم.

لم يفهم هذان العلجان هذه الحقيقةَ على صورتها الصحيحة، فسَمَّياها تعصُّبًا، مع أنها إحدى البدائه المسلّمة؛ لأن دفع عدوانِ الغازي وكراهيته حقٌّ طبيعي لكل جماعة من البشر يغزوها غازٍ في عقر ديارها، بديهةٌ مسلَّمة بلا ريب.

وأخطأ أيضًا في تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقسّيسين في ديار المسيحية الشمالية؛ لأن المشايخ لا حرية لهم وراء الكتاب والسنة، والأمة كلُّها مطالبة أن تحاكمهم بما يوجبه الكتاب والسنة، أما القسيسون فإليهم وحْدَهم الحكمُ المطلق بآرائهم، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يُسائلهم، وليس في أيدي رعاياهم شيءٌ يحاكمونهم إليه، وإنما هي الطاعة المصمتة لحكم الرهبان والقسيسين، وهذا فرقٌ ظاهر بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية.

أيقن الجزار وشيطانه فانتور أن تدجين المشايخ الكبار في الديوان قليلةٌ جدواه فيما كانا يؤملان من طاعة الجماهير وخضوعها ومهادنتها للغزاة، أرّقتهما خيبة الأمل في تدجين المشايخ، فلما خرجا إلى سورية لتدويخها وطال حصار عكّا وأيقنا بأَخَرة أن الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما أيقنا أيضًا

أن محاولة اختراق دار الإسلام بالسلاح كانت زلة لا تُقال عثرتها، ولكن لا سبيل إلى التراجع. وكل الدلائل كانت تدلُّ على أن دار الإسلام في مصر بعد تمزُّق جيش المماليك المصرية وهم حماة مصر قد بدأت تُخرِج من غُمار الجماهير المصرية جيشًا جديدًا قادرًا على الفتك بالحملة القليلة العَدد وإن كانت مزوَّدة بأحسن العُدد.

ومع ذلك لم ييأس الجزار المغرور أن تجري المقادير على وفق آماله، وعسى، ولعل، فربما كانت الغلبة لهذه القلة المزودة بما ليس في أيدي الجماهير الكثيفة مثلُه من سلاحٍ متفوق، وبحَثا عن وسيلةٍ أخرى يُقدِّران أن تكون أبلغ أثرًا وأجدى في السيطرة على الجماهير الكثيفة. وانتهى حصار عكّا بالهزيمة الفادحة، وهلك فانتور فيمن هلك من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جنده الغزاة، وعاد إلى مصر وفي قلبه الخوف من العواقب التي تفجؤه بها دار الإسلام، فرحل عنها بعد قليل إلى فرنسا ناجيًا بحُشاشة نفسه من مصيرٍ كان كأنه يراه ماثلًا عِيانًا.

أصل فكرة الابتعاث ومقاصدها

ولم يكد يستقرّ حتى أرسل إلى كليبر رسالته الطويلة المضطربة ليسكِّن رَوْع كليبر ويسدد خطاه في سياسته في مصر، جاء في خواتيمها قوله: (ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب في هذا الشتاء، أمامَ الإسكندرية أو البُرُلُّس أو دمياط. يجب أن تبني برجًا في البُرُلُّس. اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو

الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا، وإذا لم تجد عددًا كافيًا من المماليك فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يُحجزون مدة سنة أو سنتين يُشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولـمَّا يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمّ إليه غيرهم. كنتَ قد طلبت مرارًا جَوْقة تمثيلية وسأهتمُّ اهتمامًا خاصًّا بإرسالها لك؛ لأنها ضرورية للجيش، وللبدء في تغيير تقاليد البلاد).

وأراد بذلك أن يضمن تمزيق الثقافة المتكاملة التي هي ثقافتنا، وأن يقتلعها من جذورها، وأن يستفسدهم ويبهرهم ويعدهم ويمنيهم ويكوِّن منهم في مصر حزبًا تحت سيطرته يكون نواة لحزب أكبر منه.

صنيع نابليون وخلفائه بمصر

وترك نابليون الأمر كله لخليفته كليبر ليعانيَ منه ما يعاني، وقد كتَم عنه عزيمته على السفر، ثم راوغه حتى رحل قبل أن يلقاه، وما كاد كليبر يستقر على عرش خلافة نابليون أشهرًا قلائل حتى أفاقت القاهرة من ذهولها واستعدَّت لمقاومة الغزاة، وانفجرت الثورة فيها شهرًا كاملًا (٢٣ شوال - ٢٤ ذي القعدة ١٢١٤ هـ)، وارتكب كليبر في سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطعُ طريق مجنون من الفظائع والجرائم، وضرب القاهرة بمدافعه، وخرّب الدور والقصور، والمساجد، والحمامات، والزوايا والقباب والأسوار، حتى بقي ذلك كله خرابًا متّصلًا كما يقول الجبرتيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مما لا تزال آثاره شاهدةً باقية إلى يوم الناس هذا لمن يَنظر بعينٍ عربية لا بعينٍ أوربية تخالطها وطنية!

وأُخمدت الثورة وظن كليبر أن مصر كلها قد دانت له بالطاعة، ولكنه لم يهنأ بظنه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه المجاهدُ سليمان الحلبي فعاجله بطعنةِ خنجر في قلبه فخرّ وهو يصيح إليَّ أيها الحرّاس، وخرّ صريعًا لليدين وللفم، وذلك في يوم السبت ٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ.

ثم خلف كليبر على عرش نابليون في مصر مينو القائد المكيافلي الشقي الكذاب في المحرم ١٢١٥ هـ، وكان حاكما لرشيد من قِبَل نابليون، فأصاخ سمعه لسخفاء الاستشراق ومخادعيهم الكبار، فقرّر أو قرَّروا له أن يتقرّب إلى شعوب دار الإسلام بإعلان إسلامه، بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأنه أَحَبّ الإسلام وأهله ورغب فيهما تاركًا لدين النصرانية والأديان الرديئة، بل بلغ به الخبث أن يصاهر أسرة من بيت النبوة! ولا ندري كيف كان ذلك، ولكن من الممكن أن ندري بل نستيقن إذا نحن أحسنّا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل مجيء الحملة.

وبقي مينو في إمارته يُلاقي الأمرَّيْن، ويُنزل بالناس المصائب والبلايا، ويَعيث هو وبقايا الحملة الفرنسية في الأرض فسادًا وتخريبًا حتى انتهى جَلاء هذه الحملة الجاهلة التي جاء بها الفتى الصليبي المحترق نابليون؛ ليخترق دار الإسلام في أعظم معقل من معاقلها حيث الجامع العتيق بالفسطاط والأزهر الشريف بالقاهرة، وليدمّر اليقظة التي كانت فيها تدميرًا لا يبقي ولا يذر، ثم كان الجَلاء الأخير من الإسكندرية يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ، وخرجت فرنسا من مصر على عجَل.. رحلت فلول جيش الفتى

السفّاح المغرور نابليون، وجَلَتْ عن بلاد واسعة عريضة تركَتْها بَلْقعًا تَصْفِر فيه الرّيح، وانكشحت عن عاصمة عتيقة تركتها خرابًا، كان خرابًا شاملًا وتدميرًا لمدينةٍ زاهرة من أجمل مدن العالم يومئذ، بعمارتها وفنونها وبِرَكِها ومتنزهاتها، أقدم على تدميرها تدميرًا كاملًا بربريٌّ جاهل مستخْفٍ في زيّ متحضّر، ولكن صار هذا التدميرُ في عين حياتنا الفاسدة هو رسولَ الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير! لا تضحك ولا تبك! ولكن أَطرِقْ إطراقةَ الخزي والمهانة والعار!

تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب اليقظة

كان هدف هذا البربريّ المتحضّر أن يخرب عاصمةً من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها، ويتركَها تاريخًا يُروى في وثائق علماء الحملة الفرنسية، ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخربة وعن الشعب الذي استنزفوا ثروته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات حتى سرق المستشرقون المصاحبون للحملة الفرنسية ومستشرقون آخرون من كل جنس، سرقوا كلَّ نفيس من الكتب، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب.

لم يكن هذا السطو الجائح على كتب دار الإسلام في القاهرة والذي تولى كِبْرَه مستشرقو الحملة الفرنسية وأعوانُهم من اليهود ومستشرقي سائر بلاد المسيحية الشمالية سطوًا لمجرَّد رغبة الاستشراق في أداء عمله، من استمداد لثقافة أُممه من علم دار الإسلام المسطور في الكتب، ولشدة حاجة نَهضتِهم يومئذ إلى هذا العلم، لا، بل كانت الغاية الأولى المقدَّمة

على كل غاية هي تجريدَ دار الإسلام في القاهرة من أسباب اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مهدها وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم، ووفرةُ هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ هي التي يسَّرت الطريق إلى هذه اليقظة التي حمل عبء البدء بها الجبرتي الكبير وتلامذتُه، والبغدادي والزبيدي وتلامذتهما، فكان لابدّ للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله؛ فهو الهدف الأكبر، وكانت سنوات الحملة الثلاث وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء وما عمّ أحياءها من الثورات والفتن الكبار والصغار ثم قمعِها بفجور وشراسة وتحضُّرٍ أيضا! كان ذلك كله حدثًا متماديًا أدّى إلى تشتُّت شمل تلامذة الجبرتي والبغدادي والزبيدي، وتفرقهم في الأرض وضياعهم في الهرج والمرج، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بل لا أستبعد عن هؤلاء السفاحين العتاة أن يكون دهاة الاستشراق على علم بأعيانهم وأسمائهم منذ كان المستشرقون يترددون على البيت العامر بالصنادقية قرب الجامع الأزهر ليقرأوا على صاحبه الجبرتي الكبير، لا أستبعد أن يكون وَكْرُ الاستشراق قد أغرى سفهاء السفاحين بتعمُّد قتل بعضهم غيلة أو جهرة، لا أستبعد، والله أعلم أيُّ ذلك كان، فكان السبب الأكبر الدافع إلى هذا السطو الجائح هو أن يَحُولوا بين بقايا البقايا من تلامذة أئمة اليقظة الثلاثة الكبار وبين أسباب اليقظة وهي الكتب النفيسة، وأن يتركوهم في خربة القاهرة حسرى حيارى).

ومضت أربع سنوات بعد رحيل الفرنسيس، واضطربت أمور إدارة البلاد، ولكن ظَلّ المشايخ الكبار والقادة الجُدُد من جماهير الشعب في مصر

رُقَباء على كلِّ من يحاول أن يتصدر لإدارة أمور البلاد، وخاصة المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد.

انخدع المشايخ بتاجر الدخان الماكر محمد علي فنصّبوه واليًا على مصر

وأخيرًا استقرّ رأي المشايخ والقادة على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمائة من الجند في أواخر أيام الحملة الفرنسية، وكان اسمه محمد علي سرششمة، وسرششمة درجة بسيطة يلقَّب بها قائد عدد من الجنود في الدولة العثمانية، كان ذلك في سنة ١٢١٦هـ، كان محمد علي سرششمة هذا الذي أسند إليه أمر ولاية مصر في سنة ١٢٢٠هـ في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان جاهلًا لم يتعلَّم قطُّ شيئًا من العلوم، وكان لا يقرأ ولا يكتب، وقضى أكثر عمره تاجرًا يتاجر في الدخان، ثم انضمّ إلى الجند، ولكنه كان ذكيًّا داهية، عريقَ المكر يلبس لكل حالة لَبُوسَها، وكان مغامرًا، لا يتورَّع عن كذب ولا نفاق ولا غدر، وفي أثناء مقامه في مصر من سنة ١٢١٦هـ إلى سنة ١٢٢٠هـ يُراقب اضطراب أمورها واختلال إدارتها، وبنظره الثاقب وذكائه خالط المشايخ، والقادة، والمماليك الذين حاولوا العودةَ إلى ولاية الأمور في مصر فنافقهم جميعًا، وأظهر لجميعهم المودة والنصح وسلامةَ الصدر، حتى انخدع به المشايخُ والقادة، وآثروا ولايته على ولاية المماليك، فنصَّبُوه واليًا على مصر، وعلى رأس من انخدع به السيد عمر مكرم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

أكبر قائد للمشايخ والجماهير، فبذل كلَّ جهده في إسناد ولاية مصر إليه، وكان ما أراد الله أن يكون.

إحاطة المستشرقين بمحمد علي وإيغار صدره على المشايخ

لم يكن الاستشراق وخاصة الاستشراق الفرنسي غافلًا عن هذا المغامر الجديد، وعن خلائقه، بل كان مراقِبًا له كلَّ المراقبة من أول يوم جاء فيه إلى القاهرة، ومراقِبًا أيضًا لكل ما كان يجري في مصر منذ رحيل الحملة الفرنسية، فلمّا تمت ولاية محمد علي سرششمة على الديار المصرية أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة، والقناصل هم الاستشراق نفسه في صورته السياسية، فبدأوا يفتلون له في الذروة والغارِب، ويُوغِرون صدره على المشايخ والقادة الذين نصبوه واليًا على مصر، ويخوِّفونه عاقبةَ سلطانهم على جماهير الأمة، وصادف ذلك استجابةً طبيعية لما في قلب هذا المغامر الجريء من الدَّهاء والخبث، وترْكِ التورع عن الغدر، وإنكار الجميل، وحبّ التفرُّد بالسلطان الذي ناله بغتةً، ولم يكن قطُّ في حياته يتوهَّم أن يناله أو ينال ما هو دونه بكثير، فكانت أوّل غدرةٍ غدرها محمد علي سرششمة بالذي نصّبه واليًا على مصر، وبذل له في ذلك كلَّ جهد، وهو قائد الأمة مشايخِها وجماهيرها نقيبُ الأشراف السيد عمر مكرم؛ فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ، ثم انتهى الأمر بأن نزع عنه نقابة الأشراف، ثم نفاه إلى دمياط في أول رجب ١٢٢٤هـ، أي بعد ولاية هذا المغامر الغدّار بأربع سنوات فقط، وبقي السيد عمر في منفاه الأول هذا عشر سنوات، حتى

استدعاه إلى القاهرة فجاءها في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧هـ، فتوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلك السنة نفسها.

ثم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم؛ ليُوهيَ سلطانهم على جماهير الأمة، ويفتِّتَ قوّةَ الجماهير بعسفه وظلمه وإرهابه وجبروته بعد القضاءِ على قادتهم وتشتيتِ شملهم، والأمر لله من قبل ومن بعد.

تمهيد المستشرقين لعزل المشايخ الكبار عن القيادة

وكذلك ظفر المستشرقون بالمشايخ الكبار، ومهَّدوا لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة، وأوغروا صدر هذا الجبّار، ومكَّنوا في قرارةِ قلبه بُغضَ الأزهر وشيوخِه وطلبةِ العلم المجاورين فيه، وانفردوا بأُذُن هذا الجاهل الجريء المستبدّ، يوحون إليه بما يريدون وما يبيِّتون، ويُتمُّون ما بدأوا من وأد اليقظة التي تهدِّدهم بها دارُ الإسلام في مصر على يد مسلم جاهل غِرٍّ أهوج، لا يعرف كثيرًا ولا قليلًا من الثقافة المتكاملة التي حَفظتْ دار الإسلام قرونًا طوالًا، وكانت لبَّ اليقظة والنهضة الوليدة التي كان قريبًا جدًّا أن تؤتيَ ثمارها.

تأليب المستشرقين دارَ الخلافة لقمع يقظة جزيرة العرب

وثبَّت هذا الطاغيةُ محمد علي سرششمة قواعدَ ملكه، وازداد إطباق القناصل والمستشرقين على عقله وقلبه، وخاصة الفرنسيون منهم، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فتئت تخوِّف الدولة التركية وتؤلِّبها على مهد اليقظة في جزيرة العرب، والتي قام بها وأسسها محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستجابت دار

الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب حتى جرَّدَتْ حملات متتابعة لقمع اليقظة الوهابية، وآبت في جميعها بالإخفاق، ثم منذ وليَ محمد علي سرششمة جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٢٢٢هـ إلى سنة ١٢٢٥هـ، فلم يستجب لنداء تركية، ولكن الاستشراق بقناصله زيَّن أخيرًا لمحمد علي سرششمة أن يستجيب ليحقِّق مآربَهم في وأد اليقظة التي كادت تعُمّ جزيرة العرب، وأمدُّوه بالسلاح الذي يُعينه على خوض الحرب وذلك في سنة ١٢٢٦هـ، أي بعد ولايته مصر بستّ سنوات، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ودارت الحربُ التي لم تنته إلا بعد ثمان سنوات في سنة ١٢٣٥هـ، فقَدَت الجيوشُ آلافًا من أبنائها، ولقِيَتْ هزائمَ كادت تودي بها، وأخيرًا تمّ النصر لمحمد علي سرششمة بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلُّه مسلم، واستباح الديار والأموال والنساء، وهَدَم المدن، فكان هو وابنُه إبراهيم وسائرُ أولاده طغاةً من شرّ الطغاة، وكانت حربًا طاحنةً لا معنى لها، ولا ينتفع بها إلا مؤرِّثوها من دهاة المسيحية الشمالية.

وكذلك أدرك الاستشراق وأدركت المسيحية الشمالية مأربًا من أكبر مآربها في وأد اليقظة التي كانت تهدِّدهم بها دار الإسلام في جزيرة العرب، والتي كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه اليقظة إلى اليقظة الكائنة في دار الإسلام في مصر، فيومئذٍ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب، وتمّ كل ذلك على يد مسلمين جهلة يوجِّههم الاستشراق والمسيحية الشمالية

من حيث لا يبصرون ولا يعلمون ماذا يُراد بهم، ولا إلى أيّ هُوّة من الهلكة يساقون، والأمر لله من قبل ومن بعد.

تضليل في أصل فكرة الابتعاث

يقول الكاتب المؤرخ المدجّن عبد الرحمن الرافعي في كتابه تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث عصر محمد علي ص: ٤٥٢ في باب البعثات العلمية: (لو تأملت مليًّا في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرةُ واختلجت في نفس محمد علي لعجبت لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع! ففي ذلك العصر لم يفكِّر حاكم شرقي ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات، وهذه تركية وسلطانُها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد علي لم تفكِّر حينذاك أصلًا في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية، فصدورُ هذه الفكرة في ذلك العصر وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولًا فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس يدلُّ حقيقة على عبقرية نادرة، وهمة عالية) تأمّلْ، ثم تأمّل، ويا لَلعجب لهؤلاء المؤرخين المدجَّنين!.

والحقيقة أن فكرة البعثات العلمية لم تكن نابعةً من عقل هذا الجنديّ الجاهل محمد علي، بل كانت نابعةً من **عقولٍ تخطِّط وتدبِّر لأهدافٍ بعيدة المدى** استغلَّت ما في نفسه من المطامع وحبِّه للسيطرة، أحاطت به القناصل وهي تراقبُ أهواءَهُ ومطامعه فجعلت تغذِّيها وتزيدُها توهُّجًا لتجعله قوةً في قلب دار الإسلام تنازع دارَ الخلافة في تركية سلطانها، وتنشق عنها انشقاقًا يزيد في تفكُّك دار الإسلام، ويُسرع في انهيار دار الخلافة،

وفي تمزيقها وضعفها وارتخاء قبضتها على أطراف دار الإسلام، ويمهِّد للمسيحية الشمالية السبيل إلى تخطُّف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاء ممزَّقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، على أن تكون هذه القوة الجديدة في قبضة المسيحية الشمالية تصرِّفها كيف تشاء، وتقضي عليها قضاءً مدمِّرًا يوم تحتاج إلى هذا التدمير، ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلُّها منذ سنة ١٢٢٨هـ تتعلَّق بالصنائع التي تتعلق ببناء الجيش المصري لا أكثر، وكانت هذه البعثات أيضًا قليلة العدد يَنتفع بها محمد علي في حروبه في جزيرة العرب من سنة ١٢٢٦ - ١٢٣٤هـ، وفي تخطُّف أجزاء أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة، ليزيد هذا التخطّف في ضعفها وتفككها، هذه كانت غايةَ القناصل الذين أحاطوا بمحمد علي إحاطة كاملة، وصاروا عقله الذي يفكِّر به، وصار هو دُميةً في أيديهم يحرِّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم.

تطوير مشروع الابتعاث على يد المستشرق جومار

ولما فرغ محمد علي من تحطيم اليقظة التي كانت في جزيرة العرب سنة ١٢٣٤هـ، وعلا بذلك شأنه وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية، كان في فرنسا رجلٌ كبير، ممّن شاركوا في الحملة الفرنسية، كان مهندسًا بارعًا، وكانت له منزلة كبيرة عند نابليون والمستشرق فانتور، وانتُخب بعد عودته إلى فرنسا عضوًا بالمجمع العلمي الفرنسي، وكان شديدَ الاهتمام بكل ما يخصّ مصر هو المسيو «إدم فرنسوا جومار ١١٩١ - ١٢٧٨هـ»، فلما رأى نجاحَ القناصل في

إغراء محمد علي بإرسال البعثات إلى أوربة أسرع جومار يحُثُّ الاستشراق الفرنسي وقناصلَه في مصر على إغراء محمد علي بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا، ليجعلها تحت إشرافه، ولينفِّذ مشروعَ نابليون الذي بيَّنه لخليفته كليبر في رسالته إليه.

وإذا كان مشروع نابليون الذي يُراد به تكوينُ حزب للفرنسيين في مصر معتمدًا على الولاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولَّوْن حكمَ البلاد في زمانه فإن جومار قد طوَّر هذا المشروع تطويرًا كبيرًا بعد خمس وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٢١٦هـ.

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصة باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوربة، فبنى مشروعه لا على كبار السن من المماليك ومشايخ البلدان بل على شبابٍ غضٍّ يبقَوْن في فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصر، يكُونون أشدَّ استجابةً على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا، وعلى مر الأيام يكبَرُون ويتولَّوْن المناصبَ صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشدّ تأثيرًا في بناء جماهيرَ كثيرة تبُثّ الأفكار التي يتلقَّوْنها في صميم شعب دار الإسلام في مصر. هكذا طوَّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع كليبر أن يحقِّقه وهلك دونه، نجح جومار ونجح الاستشراق وقناصله في إغراء محمد علي بإرسال بعثة كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في ١٢٤٢هـ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٢٦٤ هـ، وكانت كلُّها تحت إشراف جومار، يصنعها على عينه، كانوا شبّانًا صغارًا ليس في عقولهم

ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يُغني من الثقافة المتكاملة التي عاشت فيها أمتُهم قرونًا متطاولة، ووضَعَهم جومار تحت أيدي المستشرقين يوجِّهُونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يُريدونها، ويُعطونهم القدر اليسير المتفقَ عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها، ثم يردُّونهم بعد سنواتٍ قلائلَ إلى مصر وإلى دولة محمد علي التي أسّسها، وهو ودولته في قبضة القناصل والاستشراق ومشورتهم لا يستطيع فكاكًا منها؛ لأنه كان جاهلًا لم يتعلّم علمًا قطّ، حتى الخطّ والكتابة لم يتعلّمهما إلا وهو في الخامسة والأربعين من عمره، سنة ١٢٢٩هـ.

رفاعة رافع الطهطاوي صنيعة المستشرقين

كانت أول بعثة في سنة ١٢٤١هـ فيها ٤٤ تلميذًا، أدخلهم جومار المدارس الفرنسية ليتلقوا اللغة والعلوم والفنون، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولون المناصب والأعمال! وهذا شيءٌ غريب جدًّا أن يكون هؤلاء الشبّان قد حازُوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت نواصي العلماء في سبيلها ما يؤهِّلهم للتدريس والصناعات والأعمال وجلائل الأمور، شيءٌ غريب جدًّا وهم قبل سفرهم لم يحصِّلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئًا يُذكر! أليس هذه الدعوى غريبةً كلَّ الغرابة؟!

وكان في هذه البعثة الأولى رجل قد خرج مع البعثة إمامًا لها ليراقب أفراد البعثة ويصلِّي بهم الصلوات الخمس، هو رفاعة الطهطاوي ولد بمدينة طهطا سنة ١٢١٦هـ، في أسرة رقيقة الحال، فأتمّ حفظ القرآن، وقرأ شيئًا

من متون العلم المتداولة على بعض العلماء في بلده، ثم توفي والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فرحل إلى القاهرة سنة ١٢٣٢هـ، وهو في السادسة عشرة من عمره، وانتظم في سلك طلبة الأزهر يتلقّى العلم عن شيوخه ثماني سنوات، وكان محبًّا للأدب، وفي سنة ١٢٤٠هـ عيِّن واعظًا وإمامًا في جيش محمد علي، فهذا إذن شابٌّ لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغًا له شأن يُذكر في الثقافة المتكاملة ثم يُختار في سنة ١٢٤١هـ؛ ليصحب بعثة إلى فرنسا يكون إمامًا لأعضائها، كان ذكيًّا، نعم، كان محبًّا للعلم والأدب، أدب عصره وشعر عصره، نعم، كان قويَّ العزيمة، نعم، كان نابهًا بين أقرانه، نعم، ولكنه على ذلك كله في الخامسة والعشرين من عمره، غريرٌ بيِّن الغرارة، طريُّ العود قد جاء من أقصى الصعيد ومن ظلماته وبؤسه وفقره وخصاصته وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم أقام بضع سنوات في القاهرة وفي حواري الأزهر المهدَّمة المخربة بيوتُها بفعل الفرنسيس، الضيقة طرقاتها المظلمة أزقتها، ثم يركب سفينة فرنسية تتلألأ أنوارها، ترمي به إلى قلب باريس في القرن التاسعَ عشَرَ، بحدائقها وميادينها وأنوارها ومباهجها وما لا رأته من قبلُ عينٌ كعينه، وما لا خطر على قلبٍ كقلبه، أيّ فتنة تذهب بعقل هذا الفتى وترجُّه رجًّا لا قِبَل لمثله باحتماله! وكذلك كان أيّ صيد سمين تلقفه المسيو جومار بخبرتِهِ وحُنكته وتجرِبته وبصره النافذ، فتى ناشئٌ في قلب الأزهر ذكيٌّ محبٌّ للعلم والتحصيل، قويُّ العزيمة رآه مفتونًا بالأرض

التي وطئتها قدمُه، لم يَر مثلَها من قبلُ! ورآه مقبِلًا بأقصى عزيمته على تعلُّم لغته الفرنسية معجَبًا بها وبأهلها كلَّ الإعجاب، فأخذه جومار من قريب، فكان له صيدًا أيّ صيد.

يقول الرافعيُّ المؤرِّخ المدجَّن: (ولقد كان معه ثلاثةُ أئمة آخرون للبعثة، فلم تتحرَّك نفسُ أحد منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم في فرنسا، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة، أما الشيخ رفاعة فكان ذا نفس طامحة إلى العُلا، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية، وعكف عليها من تلقاء نفسه رغبةً منه في تحصيل علومها وآدابها، ويقول رفاعة نفسُه إنه قضى في تعلُّمها ثلاثَ سنوات).

ولم يكد حتى أخذ المسيو جومار بناصيته وأسلمه لطائفة من المستشرقين يصاحبونه ويوجِّهونه، وعلى رأسهم أحد دهاقين الاستشراق الكبار ودهاته، وهو المستشرق المشهور البارون «سلفستر دي ساسي»، لم يكن لهذا الفتى الأزهري الصّعيدي المفتون مَخلص من أحابيلهم ودهائهم ومكرهم، ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم، فاستغلوه أبرعَ استغلال، وصبُّوا في أذنيه وطرحوا في قرارةِ قلبِه معانيَ وأفكارًا قد بيَّتوها ودرَسوها، وعرفوا عواقبَها وثمراتِها حين تنمو في دخيلة نفسِه، وهم يزيدونه فتنةً بإشهاده روائعَ المحافل التي تتألَّق أنوارُها، وتتألَّق تحت أنوارها أيضًا مفاتنُ النساء الكاسيات العاريات، والرجال ذوي الأبّهة، يختالون في شمائل الرقة الفرنسية، فزادوه فتنةً، وزادوا غفلتَه غفلةً، وانتزعوه انتزاعًا مما كان

يعيش فيه حتى نسيَ نفسه التي صاحبها خمسًا وعشرين سنة، وتنكَّر لماضيه القريب وأعرض عنه، وسارع ينجو بحياته الجديدة من خطاطيفِه التي تُلاحِقه، وقضى رفاعةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ستّ سنوات في باريس من سنة ١٢٤١-١٢٤٦هـ، قضى ثلاث سنوات منها في تعلم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه، وفي الثلاث الأُخَر درس التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، والآداب الفرنسية، وقرأ مؤلفات فولتير، وجان جاك روسو، ومنتسكيو، وقرأ بعض الكتب في المعادن، وفن العسكرية، والرياضيات، فحدِّث بربك كيف تكون دراسةُ هذه المتنوعات في ثلاث سنوات إلّا أن يكون ذلك كلُّه خطفًا كحَسْو الطائر، وأن يكون ما ألَّفه رفاعةُ وكَتبه سطوًا مجرَّدًا على كُتب كُتِبت في هذه العلوم المختلفة المتباينة، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم، ولكن رفاعة الطهطاويّ على ذلك كلِّه إمامٌ جاء يُخرج مصر وأهلَها من الظلمات إلى النور! يا للعجب! ولكن هذا الرجل الطيب يُحمَّل من العبقرية في إنشاء مدرسة الألسن ما حُمِّل محمد علي -الجاهل الذي لم يتعلم قط- من العبقرية في الاهتداء إلى إرسال البعثات العلمية إلى أوربة وفرنسا خاصة.

لماذا أنشأ رفاعة الطهطاوي مدرسة الألسن؟

وقصة إنشاء مدرسة الألسن في سنة ١٢٥١هـ -أي بعد عودته بخمس سنوات- ليست من فكر رفاعة الطهطاويّ ولا من بنات عبقريّته، ولكنها ثمرةٌ من ثمار الاستشراق ودهاته، الذين احتضنوه وربَّوْه وغذَّوْه ونشَّأُوه مدّةَ إقامته

في باريس. وبأقل التأمُّل في مناهج مدرسة الألسن تَعلم يقينًا لا شكّ فيه أن رفاعة الطهطاويّ نفسه لم يكن مؤهَّلًا لتدريس أكثرِ هذه العلوم، ولا كان في مصر يومئذ من المصريين من هو مؤهَّلٌ لتدريسها، فلا مناص من استقدام من يُظَنّ فيه أنه مؤهَّل لتدريسها من الأجانب، ومن المستشرقين خاصة، وكذلك كان، فكان هؤلاء الدهاة من صنائع الاستشراق هم الذين تولَّوْا تثقيف ١٥٠ تلميذًا، كان رفاعة الطهطاويّ يختارهم صغارًا من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر، وبذلك وضع رفاعة الطهطاوي أساسًا لمدرسةٍ ملفّقة، مبتورةِ الصلة كلَّ البتر من مركز الثقافة المتكاملة التي كان الأزهر مهْدَها على قرونٍ متطاوِلة، وكان هو وحده على طول هذه القرون مركزَ ثقافة دار الإسلام في مصر، وكذلك **أحدث رفاعة الطهطاويّ صدعًا مُبينًا في ثقافة الأمة**، وقَسَمَها إلى شطرين متباينين، الأزهر في ناحية ومدرسة الألسن في ناحية.

وكذلك حقَّق رفاعة لدهاة الاستشراق أهمَّ ما يَتُوقُون إليه من وأد اليقظة الواحدة المتماسكة التي كان الأزهر مركزَها، منذ عهد البغداديّ والزّبيديّ والجبرتيّ الكبير، وفي وقتٍ كان فيه محمد علي الجاهلُ يحطِّم أجنحةَ الأزهر، ويضعُه في قفصٍ لا يَستطيع الإفلات منه، ويدبِّر كلَّ مكيدةٍ لإسقاط هيبتِه وهيبة مشايخه، ويعزلُهم عن جمهور الأمة عزلًا بين قضبانٍ من الحديد وجُدرانٍ من الصخور.

ومرت الأيام والسنون وهذا الصدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق، وذهبت الثقافة المتكاملة في دار الإسلام في مصر أدراج الرياح.

وئدت اليقظة التي كان الجبرتيُّ الكبير ومن معه أبطالها وصناديدها، وكان ذلك نصرًا مؤزّرًا ناله الاستشراق بدهائه ومكره وثاقب نظره، ناله من وراء غفلة دار الإسلام في مصر، ومن وراء الجاهل الذي أسندت إليه أمورُ البلاد ومصائرُها، وأقام الاستشراق على قَبْر اليقظة بناءً جديدًا راسخَ الأساس، ظلَّ يرعاه ويحوطُه، ويزيدُه رسوخًا ومتانةً واتساعًا وسموقًا يضمن للمسيحية الشمالية الغلبةَ والسيطرة، وتمامَ التمكُّن من إخضاع دار الإسلام لأهدافه وغاياته، بلا قعقعة سلاح، وبلا مواجهة بين ثقافتين متكاملتين تتصارعان كفاحًا، فإما تتعايشان على هذا الصراع وإما يحكِّمان السلاح حتى يُقضَى لإحداهما على الأخرى بالغلبة ثم يصطلحان على حسن المعايشة وإيثار السلم، أما الآن فقد انقلبت الموازين، ومُزِّقت الثقافة المتكاملة في دار الإسلام، وانفردت الثقافة المتكاملة في ديار المسيحية الشمالية بلا قِرْن يكافئها وينازلها، وإنما هو الخضوع والاستكانة لا غير، وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

انشطار التعليم في ديار الإسلام في مصر شطرين

وذهب محمد علي سرشمة وذهب ملكُه وهلك، وجاء من بعده أولادُه وهم في قبضة القناصل والاستشراق، والتصدُّع في ثقافة دار الإسلام يتفاقم،

والبعثات الخاضعة المستكينة تتوالى، ويقع أعضاؤها في قبضة الاستشراق، يصنع أعضاءَها على عينه، وكان يَقنعُ يومئذ من هؤلاء المبعوثين بأن **يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكار، يردِّدونها ترديدَ الببغاوات**، تتضمَّن الإعجابَ المزهوّ ببعض مظاهر الحياة الأوربية، مقرونًا بنقدِ بعض مظاهر الحياة في بلادِهم، وبأن يكاشفوا أمَّتَهم بأن ما أُعجِبوا به هو سرُّ قوّة الغزاة وغلبتهم، وأن الذي عندنا هو سر ضعفِنا وانهيارنا وقد كان ذلك ظاهرًا ممثَّلًا أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوي وأشباهه، وصارت البلِيّةُ التي أحدثها رفاعة تتعاظم، والأزهر الذي كان في يديه تعليمُ الأمة أسيرًا يَرسُف في أصفاده وأغلاله، منتبذًا ناحية، ولا يَدخله إلا أبناء الفقراء والمساكين، ونازعته تعليمَ الأمة المدارسُ الجديدة التي وضع أساسَها رفاعة الطهطاوي في مدرسة الألسن، وانشطر تعليم الأمة شطرين، ونمت هذه المدارسُ وتكاثرت يدخلها أبناء الموسرين والمستورين، وجعلت الهُوّة بين الأزهر والمدارس تتسع، وأصبحت المناهج تتباين تبايُنًا شديدًا. أما مناهج الأزهر في عزلته فجعلَت تضعف وتذوي وهي على بنائها القديم. وأما مناهجُ المدارس فجعلت تنمو، ولكن نموّها قائمٌ على القشور التي تَغُرُّ ولا تُغني فتيلًا، على نفس الأساس الذي وضعه رفاعة الطهطاوي، وجعلت تزداد تباعدًا مقطوعَ الأواصر من الثقافة المتكاملة التي عاشت بها الأمة قرونًا متطاولة.

الصراع بين المستشرقين

ومضت الأيام والسنون حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في ثاني ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ، ويظل يرسِّخ قدميه في البلاد وبعد قليل رأى الحزبَ الذي أنشأه الاستشراق الفرنسي غالبًا على جمهور طلبة المدارس فبدأ الاستشراق الإنجليزي يدمِّر كلَّ ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويشتتها، فلما استقرّت أقدام الاحتلال الإنجليزي في مصر رأى الاستشراق الإنجليزي أن يبدأ في تكوين حزب قويٍّ يناصره عن طريق التحكُّم في التعليم، فأسند أمر التعليم إلى قسيس مبشِّر عاتٍ خبيث هو «دنلوب»، فذُعر الحزب الفرنسي، ونَشَرت جريدة الأهرام التي كان صَغْوها كلُّه إلى الفرنسيس خبرَ «دنلوب» بعبارة دالةٍ كلَّ الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذي أفزع حزب فرنسا، نشرت ما يأتي: (قضي الأمر وصدر الأمر العالي بتعيين المستر دنلوب سكرتيرًا عامًّا لنظارة المعارف، وقد شرع المستر دنلوب بعد الاتفاق مع اللورد كرومر في هدم الدراسة الثانوية التي هي أعظم أركان المعارف)، فانظر إلى قول الأهرام «قُضي الأمر» وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرعب الدالّ على فزَعِ الاستشراق الفرنسي من هذا الحدث المؤدّي إلى القضاء على حزب فرنسا الذي أنشأته المدارس القديمة، وتخوُّفِه من هذا الحزب الإنكليزي الجديد الذي يتولّى الاستشراق الإنجليزي إنشاءه عن طريق المدارس التي سوف يشرف عليها دنلوب القسيس المبشر الداهية،

ونقول نحن أيضًا: قضي الأمر وجاء الاستشراق الإنجليزي ليحدث في ثقافة الأمة صدعًا متفاقمًا أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه الاستشراق الفرنسي.

التفريغ الكامل لطلاب المدارس من ثقافة الإسلام وملء الفراغ بعلوم الغزاة

لما جاء عهد دنلوب كان أمر المبعوثين وحده لا يكفي، وأصبح الأمر محتاجًا إلى ما هو أكبر وأوسع انتشارًا، فكان الرأي أن تُنشَّأ أجيالٌ متعاقبة من تلاميذ المدارس في البلاد يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بهذا التحوُّل، عن طريق تفريغهم تفريغًا كاملًا من ماضيهم كلِّه، وقد تولَّى نظام دنلوب تأسيس ذلك في المدارس المصرية مع مئاتٍ من مدارس الجاليات.

ووضع دنلوب أُسَس التفريغ الكامل لطلبة المدارس، أي: تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفِّق في دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام، ومهَّد إلى ملئه بماضٍ آخَر بائدٍ في القِدَم والغموض؛ لأنّ **تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفِّق في دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام يحتاج إلى مَلءٍ بماضٍ آخَر يُغطِّي عليه**، فجاءوا بماضٍ بائد مُعرِق في القِدَم والغموض؛ ليزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفِّق الحيِّ الذي يوشك أن يتمزَّق ويختنق بالتفريغ المتواصل، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حَيْرةٍ مدمِّرة بين انتماءين، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم، وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت وبادت ثقافتها ولم يبق منها إلا أطلال من الحجارة،

مهما بلغت في العظمة والجلال فهي فارغةٌ من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة، وإنما هي آثار لا تغني شيئًا، ولا تؤتي ثمرة.

وأيضًا فإن هذا التفريغ سوف يُنشئ أجيالًا من تلاميذ المدارس تتهتَّك علائقهم التي تربطهم بثقافتهم العربية الإسلامية، اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، حتى يتمَّ تفريغهم تفريغًا كاملًا من ماضيهم كلِّه، ثم يَملأ هذا الفراغَ علومٌ وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علومُ الغزاة، وفنون الغزاة، وآداب الغزاة، وتاريخ الغزاة، ولغات الغزاة، ومع كل ذلك فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هو قشورٌ ومقتطفات تُوهِم النفوس الظامئة المفرَّغة بأنها نالت شيئًا يُذكَر، والحقيقة أنها **نالت غذاءً تعيش به موتى في صورة أحياءٍ لا غير**.

انتعاش الحركة الأدبية قام على التلخيص أو السطو على كتب المستشرقين

في ظلّ هذا التفريغ المتواصل وهذا التمزيق للعلائق وهذه الكثرةِ التي تُخرَج مفرَّغة أو شبهَ مفرَّغة إلى البعثات وهذا التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب وهذا التغليبِ المتعمَّد للثقافة الغازية واللغات الغازية بلا مقابلٍ في النفوس من ثقافة ماضية حية حياةً مّا وباقية على تماسكها وتكاملها، في ظلِّ هذا كلِّه انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشًا غيرَ واضح المعالم، ولكنه يقوم على أصل واحدٍ في جوهرِه هو مَلءُ الفراغ بما يناسب آدابًا وفنونًا غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ، فكان أكثر الكتّاب الجادِّين يعتمد على تلخيصِ نتاج الفكر الأوربي في الأدب

والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصًا مّا، وإن كان أكثرُه خطفًا وسطوًا يَنسُبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب، وبالثرثرة واللَّجاجة في الصحف والمجلّات صارت هذه الظاهرةُ مألوفةً لا غبار عليها، وزادها رسوخًا إثارةُ قضية كثيرة الضجيج، محفوفة بألفاظٍ مبهمة مغرية، تقبلها النفوس بلا ممانعة، وهي قضية القديم والجديد والتجديد وثقافة العصر. والنظرُ في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين، ميلٍ ظاهر إلى رفض القديم والاستهانة به دون أن يكون الرافض مُلمًّا إلمامًا مّا بحقيقة هذا القديم، وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ في شأن الجديد دون أن يكون صاحبه متميزًا في نفسه تميُّزًا صحيحًا بأنه جدَّد تجديدًا نابعًا من نفسه وصادرًا عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة.

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون في مصر والشام وغيرِهما، لا يربطهم في أنفسهم بهذا الماضي إلا اللسان العربيّ وحده، أما ضمائرهم فمرتبطة بشيء آخر! فكتبوا مقالاتٍ، ونشروا كتبًا، في آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها، على قلّة معرفتهم بها معرفةً تتيح لهم الكتابة، ولكنها كانت معبِّرة عن اتّجاه الاستشراق لا غير، فكانت كلها سطوًا مجرّدًا على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر، مبثوثًا في ثنايا كل ما يكتبون، وكذلك تيسر لكلِّ من لا يعرف غيرَ العربية لسانًا أن يجد على مدّ يده شيئًا جديدًا يُقال عن ماضيه، وبمناهجَ لم يَألفْها أيضًا، ولكنْ حالَ بين هذا الضرب من السَّطْو وبين أن يكون شيئًا عامًّا مؤثِّرًا تأثيرًا نافذًا في جمهور

المحافظين الذين لا يعرفون غير العربية أنهم رجالٌ وفَدُوا إلى مصر مع استقلالِ الاحتلال الإنجليزي فيها، وكانت الشبهة فيهم تُوجِب الحذرَ منهم، فأضعف الحذرُ أثرَ ما يكتبون في أكثر القراء من هذا الجمهور، وإن كان لهم في جمهور تلاميذ المدارس المفرَّغين من ماضيهم أثرٌ بليغ، ومع ذلك فإنّ الهدف لم يذهب هدرًا؛ فإنه على الأقلّ فتح الباب ويسَّر السبيلَ للساطين، وجعل السطْوَ المباشرَ أمرًا مألوفًا لا غبار عليه.

بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من التجديد، ومن متابعة ثقافة العصر ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم، ودينهم أيضًا!

كيف يكون التجديد اقتباس آراء ممن هو أجنبيّ عن الثقافة؟!

فكيف أصبح من الممكن أن يكون معنى الجديد والتجديد في دراسة آداب أمة مّا وفي دراسة تاريخها أن يَعمِد المجدِّد إلى اقتباس آراء وأفكارٍ قد تولى صياغتها مَن هو لصيق دخيل عليها وعلى لسانها لم ينشأ فيه، وإنما تعلَّمه على كِبَر؛ فهو لا يعلم منه إلا أقل القليل، ومن هو نابتٌ في لسان آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده، ومن هو محروم بطبيعته من القدرة على تذوُّق آدابها تذوقًا شاملًا، والتذوُّق وحده عقدةُ العُقَد، ومن هو مسلوبٌ كلَّ إحساس بتاريخها كلّه، فضلًا عما يكنه في سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ومن المصلحة المتجددة في تشويه صورتها تشويهًا متعمَّدًا لأغراض حضارية!

يا للعجب!

المعنى الصحيح للتجديد عند العقلاء

إن الجديد والتجديد لا يمكن أن يكون مفهومًا ذا معنى إلا أن ينشأ نشأة طبيعية من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حية في أنفس أهلها، ثم لا يأتي التجديد إلا من **متمكِّنٍ النشأة في ثقافته، متمكِّنٍ في لسانه ولغته، متذوِّق لما هو ناشئٌ فيه** من آداب وفنون وتاريخ، مغروسٍ تاريخُه في تاريخها وفي عقائدها في زمان قوّتها وضعفها ومع المتحدِّر إليه من خيرها وشرها، محسًّا بذلك كله إحساسًا خاليًا من الشوائب، ثم لا يكون التجديد تجديدًا إلا من حوارٍ ذكيٍّ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقّدة التي تنطوي عليها هذه الثقافةُ وبين رؤيةٍ جديدة نافذة، حين يلوحُ للمجدد طريق آخر يمكن سلوكه، من خلاله يستطيع أن يقطع تشابكًا من ناحية ليصله من ناحية أخرى وصلًا يجعله أكثرَ استقامةً ووضوحًا، وأن يحُلّ عقدة من طرف ليربِطَها من طرف آخر ربطًا يزيدها قوة ومتانة وسلاسة. فالتجديد إذن حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة يتولاها الذين يتحركون في داخلها كاملةً حركةً دائبةً **عمادُها الخبرة والتذوّق والإحساس المرهف بالخطر عند الإقدام على القطع والوصل وعند التهجُّم على الحل والربط**، فإذا فُقد هذا كلُّه كان القطع والحلّ سلاحًا قاتلًا مدمِّرًا للأمة وثقافتها، وينتهي الأمر بأجيالها إلى الحَيرة والتفكُّك والضياع؛ إذ يورِّث كلُّ جيل منها جيلًا بعده ما يكون به أشَدَّ منه حيرةً وتفكُّكًا وضياعًا. هذه هي العاقبةُ التي تفرض نفسها فرضًا، وما أبشعَها من عاقبة، فما ظنُّك إذن بالعاقبة إذا كان القطع والحَلُّ

مرادًا لذاته!، وكان مرادًا أيضًا أن لا يكون معه أو بعده وصل وربط في داخل التكامل والتماسك الذي يجعل لهذه الثقافة معنى وحياة وحركة!، وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ولم تكن الأفكار المجددة إلا ترديدًا لصياغة غريبة، صاغها غريبٌ عن الثقافة منتسبٌ إلى ثقافة غازية مباينة، وهو مع ذلك ناقص الأداة لا خبرة له بتشابكها وعُقَدها، ثم هو في نفسه لا يُضمر لها إلا التدمير والاستهانة لغرضٍ راسخٍ في قرارة النفس!، ثم ما ظنك أيضًا بالعاقبة إذا صار التجديد عند أصحاب الثقافة أنفسهم لا يزيد على أن يكون سطوًا مجرّدًا على هذه الصيغ الغريبة ثم إقحامَها إقحامًا على ثقافتهم، لا لحاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبّر، بل بالهوى وحبّ الظهور من مفرَّغٍ أو من شبيهٍ بالمفرَّغ من ثقافته المتكاملة المتماسكة!

السنن التي سنّها الأساتذة الكبار في مجال البحث

وكذلك سنَّ الأساتذة الكبار في مجال الثقافة والبحث **سنة التلخيص** لأفكار عالَم آخَر دون أن يشعر الملخِّص بأنه أمرٌ محفوف بالأخطار ودون أن يستنكف أن ينسبه إلى نفسه نسبةً تجعله عند الناس كاتبًا وصاحبَ فكرٍ، و**سنة السطو** حين يعمد الساطي إلى ما سطا عليه فيأخذه فيمزقه ثم يفرقه ليُخفي معالم ما سطا عليه وليصبح عند الناس صاحبَ فكرٍ ورأي ومذهب يُعرَف به وينسب كلُّ فضله إليه، و**سنة الاستخفاف** بتراث متكاملٍ، بلا سببٍ وبلا بحث وبلا نظر، و**سنة الإرهاب الثقافي** الذي جعل ألفاظ القديم والجديد، والتقليد والتجديد، والتخلف والتقدم، والجمود والتحرر،

وثقافة الماضي وثقافة العصر، سياطًا مُلهِبةً، بعضُها سياط حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاع وأتى، وبعضها سياط عذاب لمن خالف وأبى.

لا يحترم ما كتبه المستشرقون إلا أوربّي أو من هو بمنزلته

مضى أنَّ كتب «الاستشراق» التي سطا عليها هؤلاء ومقالاتِه ودراساته كلَّها مكتوبةٌ أصلًا للمثقّف الأوربي وحده، وأنها كُتبت له لهدفٍ معيّنٍ، في زمان معيّن، وبأسلوبٍ معيّن، و«الاستشراق» لا يُذَمّ لأنه فعل كلَّ ذلك؛ لأنه بلا شك قد أدَّى ما عليه لبني جلدته أحسنَ أداء وأتـمَّه، ونصَر أهل دينه، وأخلص لهم كلَّ الإخلاص، أما الذي هو حقيقٌ بالذم والمعابة فالعاقلُ الذي يظنّ نفسه عاقلًا والبصيرُ الذي يظنّ نفسه بصيرًا ثم لا يكاد عقلُه يدرك شيئًا هو أبينُ بيانًا من البدائه المسلَّمة، ولا يكاد بصره يرى ما هو أظهر ظهورًا من الشمس الساطعة.

إنّ ما كتبه «الاستشراق» من حيث هي كتب أو دراسات حقيقة باحترام كل أوربي مثقف، أو مَن كان بمنزلة الأوربي المثقف في الغربة عن العربية والإسلام؛ لأنها يسَّرت له ما لم يكن ليتيسَّر البتَّة، أما من حيث هي كتبٌ أو دراسات علمية جديرة باحترام مثقَّفٍ غير أوربي، أي من أبناء العرب والمسلمين خاصة، أي أبناء لغة العرب وأبناء دين الإسلام، فهذا عندئذ موضع نظر، لأنَّ الأمر – ولا خيار فيه – يختلف اختلافًا بيِّنًا حينئذٍ، ويتطلَّبُ النظر في أمرين: أمر الكاتب وأمر المكتوب معًا.

لِمَ لا توصف كتب الاستشراق ومقالاته بأنها دراسات علمية

قال محمود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أني سأبيِّنُ لك الأمر هنا في حالة واحدة، هي حالة استحقاق الدراسة أن توصف بأنها «علْميّة» بمعناها الصحيح، وهل هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه «المستشرقون» دراسة «علْميّة» بمعناها الصحيح الموجبِ للاحترام والتقدير؟).

وقد بين المؤلف أنه لم توجد على الأرض أمّة واحدة سمحت لأحدٍ أن ينزل ميدان البحث في أي علم كان أو فنٍّ إلا وهو مُطيقٌ للنزول فيه بحقه، فإذا اجترأ مجترئ عارٍ من الشروط وفعل نُفِيَ وطُرد طردًا، وأبَوْا من أن يعُدُّوه في الكُتّاب كاتبًا، أو في العلماء عالـمًا، أو في الباحثين باحثًا، وأُلقي عمله كلُّه في سلة المهملات، كما يقولون.

إنّ عمل «الاستشراق» كلَّه مبنيٌّ على رسم صورة محدَّدةٍ قائمةٍ في نفسه، ومن أجل إحداث هذه الصورة المقنِعة للمثقّف الأوربي يُعاني مشقة «جمع المادة»، فهذا العمل وحده أو هذا القصد المتعمَّدُ وحده آفةٌ خبيثة كافيةٌ وحدها في إسقاط عمل «الاستشراق» كلّه إلى حضيض الفساد والإفساد ومُفضيةٌ بعد ذلك إلى قَذْفِ عمله كلِّه منبوذًا خارجَ حدود كلّ ما يمكن أن يوصف بوجهٍ مّا أنه «عمل عِلْمِيٌّ» خالص. ومُحقِّرٌ لعقله من لا يدركه، فدَعْ عنك من يرتضيه؟ ومُغَطًّى على بَصَره من لا يُبْصِرُهُ، فما ظنك بمن يُنافح عنه؟!

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ متسائلًا: (إذن فخبِّرني أهو ممكنٌ أن يكون مجردُ تعلُّمِ لغةٍ أنت فيها شادٍ كفيلًا بأن يجعلك كاتبًا أو باحثًا في أسرار هذه اللغة وفي ثقافتها مهما كانت منزلتُك أنت في لغتك وثقافتك؟ أممكن هو؟ مجرَّدُ خُطُورِ إمكان هذا في وهمِك مخرِجٌ لك من حدِّ العقل! **فأعجب العجب إذن أن يعُدّ أحدٌ شيئًا مما كتبه المستشرقون في لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا داخلًا في حدّ الممكن**، وأن يراه متضمِّنًا لرأيٍ حقيقٍ بالاحترام والتقدير، فضلًا عن أن يكون عملًا علميًّا أو بحثًا منهجيًّا نسترشد به نحن في شئون لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا، كما هو السائد اليوم، أليس هذا شيئًا لا يطاق سماعُه ولا تصوُّرُه؟! ومع ذلك فهو كائنٌ معمولٌ به بلا غضاضة! أليس هذا غريبًا؟ أليس غريبًا جدًّا أن لا يكون لمثل هذا شبيهٌ البتة في أيّ لغة وأيّ ثقافة كانت في الأرض أو هي كائنة اليوم!

وقال: (أرأيتَ قطُّ رجلًا من غير الإنجليز أو الألمان مثلًا – مهما بلغ من العلم والمعرفة – كان مسموعَ الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لغتها، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية، وفي حياة المجتمع الإنجليزي، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم؟! أليس غريبًا أن يكون غيرُ الممكن ممكنًا في ثقافتنا نحن وحدها دون سائر ثقافات البشر قديمِها وحديثها؟! غريب عجيب لا محالة).

جيل المدارس المفرّغ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك كان مقدَّرًا لجيلنا نحن جيلَ المدارس المفرَّغ أن يتلقّى صدمة التدهور الأولى!

جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى، وهي التي يسميها أصحابها الحربَ العالمية الأولى، خرج منها الحلفاء منصورين، وبدأوا من فورِهم في تقسيم عالمنا وتبديده، وأخذ كلُّ مستعمرٍ منهم يشدِّد قبضتَه على ما وقع في يده من الغنائم، وبالدهاء والمكر والسطوة جعل يَدفع هذا التحوُّل دفعًا شديدًا لكي يتمّ له أن يُخضِع عالَمَنا المتخلِّف لحاجات عالَمِه المتحضِّر)، وقد **كان التمهيد لهذا العهد طويلًا متعدِّد الجوانب**.

فاقرأ الآن تاريخك بعينٍ عربية بصيرة لا تَغفُل، لا بعينٍ أوربية تخالطُها نخوة وطنية؛ حتى تُلِمّ بأطراف البلاء الذي حاق بأمّتك العربية الإسلامية، وحتى لا تدخل تحت المعنى الذي قاله أبو عبادة البحتري:

ومِن العجائبِ أعينٌ مفتوحةٌ وعُقولُهن تجولُ في الأحلامِ

أحلامِ النهضة، والتجديد، والأصالة والمعاصَرة، والثقافة العالمية، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تَنقضي، أحلامٌ جعلت صدمةَ التّدهوُر مستمرةً متماديةً متفاقمةً إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها، ولله الأمر من قبلُ ومن بعد.

وقد كان ما أراد الغزاةُ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادُوا، بل زاد بشاعةً وعُمقًا في سائرِ أنحاء العالم العربي والإسلامي.

انقسام العالَم إلى عالم الغزاة الناهبين وعالم المستضعفين المنهوبين

وصار بيِّنًا أننا نعيش في عالَم منقسم انقسامًا سافرًا، عالمِ الغزاة الناهبين وعالمِ المستضعفين المنهوبين، كان عالم الغزاة الممثَّل في الحضارة الأوربية يريد أن يُحدِث في عالم المستضعفين تحوُّلًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا؛ فهو صيدٌ غزير يَمُدّ حضارتهم بجميع أسباب القوّة والعلوّ والغنى والسلطان والغلبة، والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسيٌّ محض، لا غاية له إلا إخضاع هذا العالم المتخلِّف إخضاعًا تامًّا لحاجات العالم المتحضِّر التي لا تنفد، ولسيطرتِه السياسية الكاملة أيضًا.

تخيير المؤلف القارئَ بين خطتين لا ثالثة لهما تجاه هذا الفساد

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف كان ذلك؟ ولم كان ما كان؟ قصة طويلة عريضة ملؤها الغرائب والعجائب والمضحكات والمبكيات والحسرات والآهات من مبدئها إلى منتهاها، ليتني أستطيع على المكان -أي: الآن- أن أقصها عليك كاملة بتفاصيلها، ولكن أنى يكون لي ذلك الآن، فاقنع مني بالاختصار المفهم والإيماء الخاطف واللمحة الدالة إبراء للذمة، ذمتي أنا، وأداء للأمانة التي حُمِّلتُها لأستودعها بين يديك.

وأنت مخيَّر بين خطتين لا ثالثة لهما: إما أن تتقصَّى المكنون الغائب من تفاصيلها المشتَّتة في تاريخك وكتبك، بعقل وهمة وجِدٍّ ويقظة وبَصَرٍ وإدراك، وبأنفة من قبول الذلّ والعار والمهانة.

وإما أن تَمَلَّها فتطرحها عن كاهلك، قابلًا لمزيد من الذلّ والعار والمهانة، مستحليًا خداع النفس بأوهام سوّلتها لك حياتنا هذه الأدبية

الفاسدة، والتي ألقت بكل فسادها في حياتنا اللغوية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية، بل في صميم حياتنا الدينية أيضًا، حتى أوشك أن يضيع كل شيء كان غير قابل للضياع.

فاختر لنفسك منهما ما شئت، فإن اخترت الخطة الأولى فاصبر على لأوائها ومشقتها ولا تجزع، وكن رابط الجأش لا تستحوذ عليك المخاوف والرهبة، ولا تهولنَّك أسماء الرجال المحدَثين الكبار والتي لها دويّ وضخامة؛ فإنما هي طبل فارغ وزِقٌّ منفوخ ملؤه هواء، واعلم أن الأمر جِدٌّ كلُّه، فإن داخَله الهزل خرجت منه صِفْر اليدين، ولا يغررك زخرف الألفاظ الوسيمة المتلألئة مثل قولهم: الجديد والقديم، والأصالة والمعاصرة، والتجديد والتقدم، والثقافة العالمية، والحضارة العالمية، والتخلف والتحضر؛ فإنما هي ألفاظ لها رنين وفتنة، ولكنها مليئة بكل وهم وإيهام وزَهْوٍ فارغ مميت فاتِكٍ، توغل بنا في طريق المهالك، وتستزل العقل حتى يرتطم في رَدغة الخبال - أي: طينته اللزجة-، فإن استبان لك أول الطريق ولكن هِبت وترددتَ فاستمع حينئذ لنصيحة الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن من يُخوّفك حتى تلقى الأمن أشفقُ عليك ممن يؤمّنك حتى تلقى الخوف». كان الله في عوني وعونك).

الحرب الثقافية على المسلمين

وأختم هذه القراءة بعبارات له رصينة صادقة معبّرة عن هذه الخلاصة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تَقدِمته لكتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (... منذ أول الإسلام خاضت الجيوش الإسلامية معاركَ الحرب في جميع أنحاء الدنيا، وخاض معها العقلُ

الإسلامي معاركَ أشدَّ هَوْلًا حيث نَزَل الإنسان المسلم، وتقوَّضت أركان الدول تحت وطأة الجند المظفَّر، وتقوَّضت معها أركان الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسلم المنصور، وظلت الملاحمُ دائرةَ الرحى قرونًا متطاولة في ميادين الحرب وميادين الثقافة، حتى كان هذا العصرُ الأخير.

انبعثت الحضارةُ الأوربية، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلاميّ أكبرَ معركةٍ في تاريخنا وتاريخهم، وهي معركةٌ لم يُحِطْ بأساليبها وميادينها أحدٌ بَعْدُ في هذا العالم الإسلاميّ، ولم يتقصَّ أحدٌ آثارَها فينا، ولم يتكفَّلْ بدراستها من جميع نواحيها من يُطيق أن يَدرُس...

لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوربي المسيحي وبين العالم الإسلامي معركةً في ميدان واحد، بل كانت معركةً في ميدانين، مَيدان الحرب وميدان الثقافة، ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاحَ في ميدان الحرب لأسبابٍ معروفة، أما ميدان الثقافة فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلًا بعد جيل، بل عامًا بعد عام، بل يومًا بعد يوم. وكانت هذه المعركةُ أخطرَ المعركتين، وأبعدَهما أثرًا، وأشدَّهما تقويضًا للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي.

وكان عدوُّنا يعلم ما لا نعلم، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه، وكان يعلم من خباياها ما لم نعلم، ويُدرِك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع، ويتحرَّى لها من الأسباب المفضية إلى هلاكنا ما لا نتحرَّى أو نُلقي إليه بالًا. وأعانه وأيَّده أن سقطت الدول الإسلامية جميعًا هزيمة في ميدان الحرب، فسقطت في يدِه مقاليدُ أمورها في كل ميدان من ميادين

الحياة، وصار مهيمنًا على سياستها واقتصادها وصحافتها، أي سقطت في يده مقاليدُ التوجيه الكامل للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي.

وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تُعدّ، بل تشمل المجتمع كله في حياته، وفي تربيته، وفي معايشِه، وفي تفكيره، وفي عقائده، وفي آدابه، وفي فنونه، وفي سياسته، بل كل ما تصبح به الحياة حياةً إنسانية كما عرفها الإنسان منذ كان على الأرض. والأساليب التي يتخذها العدوّ للقتال في معركة الثقافة أساليبُ لا تعدّ ولا تحصى؛ لأنها تتغير وتتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها، وأسلحةُ القتال فيها أخفى الأسلحة؛ لأن عقل المثقف يتكون يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وهو يتقبل بالتربية والتعليم والاجتماع أشياء يُسلِّمها بالإلف الطويل، وبالعرض المتواصل، وبالمكر الخفيّ، وبالجدل المضلِّل، وبالمراء المتلوِّن، وبالهوى المتغلِّب، وبضروبٍ مختلفة من الكيد الذي يعمل في تحطيم البناء القائم لكي يقيم العدوّ على أنقاضه بناءً كالذي يريد ويرجو.

وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابعت هزائمُ العالم الإسلامي في ميدان الثقافة جيلًا بعد جيل، وكما بقِيَتْ معاركُ الحرب متتابعة سرًّا مكتومًا لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندُها حتى هذا اليوم بقِيَتْ أيضًا معارك الثقافة على تطاوُلها سرًّا خافيًا لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندُها، بل أكبر من ذلك! فقد أصبح أكثرُ قادة الثقافة في العالم الإسلامي وأصبح جنودُها أيضًا تَبَعًا، يأتمرون بأمر القادة من أعدائهم، عارفين أو جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلَبوا عدوًّا للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه، بل الذي يدافعون عنه أحيانًا دفاع غَيْرةٍ أو إخلاص.

لم يكن غرضُ العدوّ أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالًا بهدى، أو أن يصارع باطلًا بحقٍّ، أو أن يمحوَ أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضُه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلاميّ جرحَى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصبَ في أرجائه عقولًا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تدرك، ولا تبصر إلا ما يريد لها هو أن تبصر، ولا تعرف إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عُرفت إلى هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مِثْلًا بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون وظفِر العدوُّ فينا بما كان يبغي ويريد.

وقد فصَّل مالك في مدخل الدراسة محنةَ العقل الحديث في العالم الإسلاميّ، على يد أمضى أسلحة العدوّ في تهديم بعض جوانب الثقافة، بل أهمّ جوانبها، وهو سلاح (الاستشراق)، سلاحٌ لم يدرسْهُ المسلمون بعدُ، ولم يتتبَّعُوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مَكايدِه وأضاليله، ولم يقِفُوا على الخفيّ من أسرار مَكْرِه، ولم يَستقصُوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية، بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية، كيف؟ بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون! فهم يتدارسون ما يُلقيه إليهم على أنه علم يتزوَّدُه المتعلِّم، وثقافةٌ تتشرّبها النفوس، ونظرٌ تقتفيه العقول، حتى كان كما قال مالك: «إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغتْ درجةً خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها»، وتفصيلُ أثرِ هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث وفي سياستنا وفي عقائدنا وفي كتبنا وفي ديننا وفي مدارسنا وفي صحافتنا وفي كلِّ أقوالنا وأعمالنا شيءٌ لا يكاد يُحيط به أحد).

الفهرس

تقديم	٥
إغفال التاريخ مخالفة لسنة العقلاء	١٣
أمران يتعلقان بنهضة أوربا إغفالهما يضر بالحقيقة	١٣
تجنُّبُ ملوك الإقطاع والرهبان الحرب بالسلاح واتّجاههم إلى العلم	١٥
طلب الأوربيين الخروج من عار الهزيمة في الحروب وفتح القسطنطينية	١٧
ليس لأوربا المسيحية من مدد إلا ما كان في دار الإسلام من العلم	١٩
اقتناء الأوربيين للكتب في دار الإسلام بالشراء أو السرقة	١٩
أمران عظيمان كان يقوم بهما من يسيح منهم في ديار المسلمين	٢٠
صبرهم على فرز ما حازوه من ديار الإسلام من كتب العلم	٢١
اتحادهم على تباعد بلدانهم وذلك لاتضاح الهدف عندهم	٢٢
حرب صليبية ليست بقعقعة السلاح	٢٣
تصوير المسلمين بصورة تمنع الأوربي أن يُسلم	٢٤
المستشرقون هم الذين رسموا صورة المسلمين للأوربيين	٢٥
جوهرُ صورة المسلمين عند الأوربيين!	٢٦

جعل المستشرقين صورةَ المسلمين التي رسموها في جميع كتبهم	٢٧
انطلاق أساطيل أوربا المسيحية لتطوِّق ديار المسلمين	٢٨
سفحُ الأوربيين دماء الملايين من سكان أمريكا	٢٨
ضعف دار الخلافة	٢٩
تغلغل المستشرقين في ديار المسلمين وخبرتهم بأحوالها	٣٠
تكوين الاستشراق جاليات تقيم في ديار المسلمين	٣٢
دخول الأوربيين مرحلة حاسمة ليردوا عنهم الخزي الذي أحدثه محمد الفاتح	٣٢
يقظة في ديار الإسلام	٣٣
فزَعُ المستشرقين من يقظة دار الإسلام	٣٣
صراع دول أوربا على نهش أطراف دار الإسلام	٣٤
أول جهاز استعماريّ في ديار الإسلام هو الشركات الأوروبية	٣٤
صراع الشركتين الأوربيتين في الهند	٣٥
تفاقم أمر الجاليات التي غَذاها المستشرقون في مصر	٣٦
ظهور المستشرقين على حقيقتهم في حملة نابليون على مصر	٣٧
نشاط المستشرقين في التأثير على المشايخ	٤٠
هدف الحملة الفرنسية هو وأد اليقظة في دار الإسلام في مصر	٤٢
المصير المظلم	٤٥

مشايخ ديار الإسلام ليسُوا كالقسّيسين في ديار المسيحية	٤٨
أصل فكرة الابتعاث ومقاصدها	٥٠
صنيع نابليون وخلفائه بمصر	٥١
تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب اليقظة	٥٣
انخدع المشايخ بتاجر الدخان الماكر محمد علي فنصّبوه واليًا على مصر	٥٥
إحاطة المستشرقين بمحمد علي وإيغار صدره على المشايخ	٥٦
تمهيد المستشرقين لعزل المشايخ الكبار عن القيادة	٥٧
تأليب المستشرقين دارَ الخلافة لقمع يقظة جزيرة العرب	٥٧
تضليل في أصل فكرة الابتعاث	٥٩
تطوير مشروع الابتعاث على يد المستشرق جومار	٦٠
رفاعة رافع الطهطاوي صنيعة المستشرقين	٦٢
لماذا أنشأ رفاعة الطهطاوي مدرسة الألسن؟	٦٥
انشطار التعليم في ديار الإسلام في مصر شطرين	٦٧
الصراع بين المستشرقين	٦٩
التفريغ الكامل لطلاب المدارس من ثقافة الإسلام وملء الفراغ بعلوم الغزاة	٧٠
انتعاش الحركة الأدبية قام على التلخيص أو السطو على كتب المستشرقين	٧١

كيف يكون التجديد اقتباس آراء ممن هو أجنبيّ عن الثقافة؟!	٧٣
المعنى الصحيح للتجديد عند العقلاء	٧٤
السنن التي سنّها الأساتذة الكبار في مجال البحث	٧٥
لا يحترم ما كتبه المستشرقون إلا أوربّي أو من هو بمنزلته	٧٦
لِمَ لا توصف كتب الاستشراق ومقالاته بأنها دراسات علمية	٧٧
جيل المدارس المفرّغ	٧٩
انقسام العالَم إلى عالم الغزاة الناهبين وعالم المستضعفين المنهوبين	٨٠
تخيير المؤلف القارئَ بين خطتين لا ثالثة لهما تجاه هذا الفساد	٨٠
الحرب الثقافية على المسلمين	٨١
الفهرس	٨٥